فريق
متميزون
E-BOOK

رواية

نوجين

أحمد عُمر فرج

دار الرسم بالكلمات

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.

وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق (متميزون)

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

نوجين

أحمد عمر فرج

عن الرواية..

«إلى الفاقِدي ن والمُنتبهين للفرا غ الموجو د بين أفراد العائلة، المُتأمِّلين لعودةِ الفرد الناقص منهم رُغم انقطاع سراج الأمل. هذه الرواية لكم،...

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إهداءٌ إلى كلِّ ضَحايا الحروب.

إهداء إلى جدَّتي وجدِّي -رحمهما الله-

إهداء إلى زوجتي وأبنائي وعائلتي من صغيرهم إلى كبيرهم..

دُمتُم خيرَ سندٍ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مستمدة من أحداث حقيقية،
وأي تَشابُه داخل الروايةِ من شخصياتٍ أو أسماء
فهو من قَبيل الصدفة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إلى الفاقِدين والمُنتبهين للفراغ الموجود بين أفراد العائلة، المُتأمِّلين لعودةِ الفرد الناقص منهم رُغم انقطاع سراج الأمل..

هذه الرواية لكم، وسطورها كُتبَت إليكم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(التاريخ ضِمن الغنايم وبيكتبُه الكسبان)

الشاعر مصطفى إبراهيم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الأول
اِخْتِفَاءٌ

(أريدكم أن تعيشوا داخل الجدران وليس بجانبها)

٦ مارس ٢٠١١.

درعا -١٠٠ كم جنوب العاصمة السورية دمشق.

اسمي (نُوچين)، طالبة في كلية الآداب قسم اللغة العربية، أعشق القراءة وخصوصًا الروايات، أعيش في مدينة (درعا)؛ إحدى مدن الجنوب السوري. كنت أجلسُ بالمنزل أُتابع إحدى المسلسلات التليفزيونيَّة، بينما كانت أمي في المطبخِ تقوم بتحضير الغداء. أختي (سيدرا) -ذات العشرين عامًا- تجلسُ على كرسيها المتحرك ممسكةً بكتاب تقوم بتقليب صفحاتِه بعناية؛ وكأنها تبحثُ عن شيئًا ما بداخله. وأبي كالعادة لم يأتِ بعد، فهو في العمل الآن، ولكنّ أخي (عمار) ذو الثلاثة عشر عامًا قد تأخر.

قالت أمي:

- كَلمي أخاكِ يا (نُوچين) عِوضًا عن مشاهدتك التلفاز.

أردُّ عليها بضيق:

- حاضر يا أمي.

نه ضتُ من مجلسي لأَحاول إحضار تل يفوني، وبينم ا أبحثُ عنه إذا بطرقاتِ باب شديدة؛ حيث كاد الباب أن يُقتلع من شدة الطرق عليه. جميع من في البيت هرعَ نحو الباب في خوف ورعب، حتى (سيدرا) كادت أن تقع من على كرسيها، ارتدت أمي نِقابها بسرعة وقالت:

- مَن بالخارج؟

- الشرطة، افتحي.

نظر ت أمي إلينا بـ خوفٍ، ووضعت يدها على قلبها وهَمهَمت ببعض الآياتِ القرآنية، ثم فتحت الباب، وإذا بهم يدخلون علينا كالسيل. دخلوا جميعًا البيت، كل فرد منهم ذهب في اتجاهٍ مختلف؛ حتى امتلأ البيت بالعساكر، كل غرف البيت كانت مكتظةً بهم، جميعهم يبحثون عن شيء، ولكننا لا نعلم عن أي شيء يبحثون!

- أين (عمار)؟

قالها قائدُهم بصوت جهوريٍّ مرتفع ينمُّ عن غضب شديد. ردّت عليه أمي في تعجب:

- (عمار) بالمدرسة لم يأتِ بعد، وهل كل هذه الضجة والجلبة لـ (عمار)؟!

نعم، ولن تكون الأخيرة.

أصابني الرعبُ مما رأيته، هل أخي ذو الثلاثة عشر عامًا يستحق كل هذه الضجة؟ ماذا فعل لكل هذا؟ هل قام بقتل أحدهم؟ ولكنه لا يقوى على ذبح دجاجةٍ! هل قام بالوقوف في مظاهرة والمطالبة بحقوق الطفل المسلوبة في بلدنا؟! لا أعتقد ذلك؛ فـ (عمار) غير منشغل إلا بكُرة القدم فقط. وبينما أحاول أن أجد مبررًا لكل هذه الجلبة إذا بأبي يدخل المنزل مسرعًا وعلامات التعجب والاستفهام على وجهه الذي اكتسى بتجاعيد الخمسين من العمر. نظر إلينا جميعًا فلم يجد إجابة، بل وجدنا أيضًا في نفس الحيرة. نظر إلى القائد وسأله في تعجب:

- ماذا يحدث؟

- نحن نبحث عن (عمار).

- (عمار) ابني؟!

هو ابنك إذًا! هذا جيد، سوف تأتي معنا نصف ساعة وتعود مرة أخرى إلى المنزل. أيتها العساكر، هيَّا بنا، وأحضروه معنا.

أمسَكوا بأبي ونحن مُمسكون به أيضًا، والدموع تنهمر من الجميع، دموع ممتزجة بصراخٍ عَلا الحي الذي نقطنُه ونحن نبكي بحسرة على أبي وأيضًا على مصير (عمار) الذي نجهله، جميع من في الحي أتى ليُواسينا ولكي يسألوا

عمَّا يحدث معنا. ولكن لم نستطع الإجابة على أحد؛ فنحنُ حقًّا لا نعلم أيَّ شيء عمّا يدور معنا.

دلفنا إلى المنزل مرة أخرى مُحمَّلين بالحسرة والخيبة، فلا باليد حيلة حِيال ما يحدث. أغلقنا الباب علينا وجلسنا ثلاثتُنا ننظر إلى بعضِنا البعض نتساءل عن ما يحدث معنا! أمي شاخصةٌ في صورة معلَّقة على حائطِ منزلنا، يُ مسك أ بي فيها بـ (عمار) والابتسا مة تعلو وجهيه ما البشوش، بينما تجلس (سيدرا) على كرسيها المُتحرك وأصاب وجهها الوجوم.

بعد مرور أكثر من اثنتيّ عشرة ساعةً؛ دخل أبي إلى المنزل في تمام الرابعة فجرًا، دخل إلينا وتعلو وجهه علامات الخيبة والألم. اتجهنا جميعًا نحوه ثم احتضناه، نُقبِّل كل جزء في جسده الذي أنهكه التعب. كل واحدةٍ منَّا تسأله: ماذا حدث يا أبي؟ أين عمار يا أبا عمار؟ ماذا حلَّ بأخي يا أبي؟ جلس أبي وهو ينظر إلى الأرض ولا يُجيب علينا، ثم ذهبت أمي إلى المطبخ وأحضرت إلى أبي كوبًا من الماء، ارتشف القليل ثم نظر إلينا وقال متأثرا:

- اقتادوني إلى المخفر، جلست فيه أنتظر أن يأتي أحدٌ إليَّ ويخبرني بما يحدث، ولكن دون جدوى، لا أحد يرُد ولا أحد يُجيب على أَسئلتي، حتى اقتادني أحد العساكر إلى

قائدهم، ثم قال لي: اجلس يا أبا عمار، هل تعلم ما فعله ابنك هو وأصدقاؤه؟

- لا يا سيادة القائد، لا أعلم.

- لقد قام ابنك وأصدقاؤه بكتابة عباراتٍ مُسيئة لرئيس جمهوريتنا على جدران أحد المدارس الموجودة بالبَلدة، على غرار الشعارات التي يُردِّدها الثوار في مصر وتونس مثل: يسقط النظام وارحل وما إلى ذلك، هل تريد أن يسقط النظام وأن يرحل الرئيس يا أبا عمار؟

- لا لا، بالطبع لا أريد. نحن دائمًا ما نبعُد عن المشاكل ونعيش دائمًا بجانب الجدران.

- لا، من الليلة أريدك أنت وابنك وأهل بيتك أن تعيشوا داخل الجدران وليس بجانبها، واعلم أنّك إن لم تأتِ إلينا بابنك فسوف نأتي نحن به، ولن تراه مجددًا.

جلس أبي على الأريكة في حيرةٍ من أمره ، لا يعلم ماذا تُخبِّئُ له الدنيا، يُطالع ملامحناً الحزينة بعينين تحكي قسوة ما مرَّ به هُناك. كان لوجه أبي اللون البرونزي الذي أهدته إيَّاه أشعة الشمس لقاء عمله الكادح طوال اليوم، فلقد أفنى حياته لكي يؤمِّن لي أنا وإخوتي لُقمة العيش الشريفة، ولم تترك السِنين أبي حتى وضعت لمستَها على محياه من خلال الأخاديد و الحُفر التي رَسمت طريقها

على وجنتيه وتحت عينيه. كان الصمت هو السائد علينا جميعًا إلا أمي التي انهمرت في البكاء، فهي تعرف مصير من يُعارض النظام؛ فهي كانت من ضحايا النظام لكونها مُنتقبة، لأنَّ الحكومة أصدرت قرارًا من قَبل بعدم ارتداء المُدرِّسات للنقاب، ومن تُخالِف القرار يتم فصلها على الفور من عملها. وبالفعل لم تَنْصَع أمي لقرار الحكومة ورفضت خلع النقاب؛ فما كان لهم إلا أن قاموا بفصلها عن العمل، وهذا يعكس ما وصلت إليه البلاد، فلقد ارتفعت معدلات البطالة، وتدنَّى مستوى المعيشة فيها، وكذَّا نخشى التحدث في أي شيء يخصُّ السياسة أو التطرق إلى الأحاديث الجانبية الخاصة بالرئيس أو العاملين بالحكومة.

مرَّت عدة ساعات، ومع إشراقة صباح يومٍ جديد؛ كان الأمل يَحدونا في أن يَهل علينا (عمار) كعادتِه بابتسامته التي تعلو وجهه، ولكن قُوبل أملنا هذا بواقع صادم، فلقد وَجدنا معظم أهل الحي الذي نقطنه في نفس أزمتِنا، لقد اختفى أيضًا بعض أبناء الحي ولا يعلمون أين هم مُنذ ليلة أمس. صرخات وبكاء ومواساة، مشاعر حزينة لم نعتَد عليها داخل حيِّنا الذي كان مصدرًا للبهجة في محافظة درعا كلها. بسرعةٍ، هَرول أبي إلى الشارع لينضم إلى الآباء المغلوب على أمرهم. لقد كان هناك خلاف بيننا وبين

أحد جيراننا، وجدتُه أول الاشخاص الذين ربَت أبي على كتفِهم، هنا تُختبر قوتنا وجلدنا وصبرنا على مُواجهة العقبات وما يُرافقُها من احباطاتٍ وانتكاسات، لا نعلم ماذا يُخبِّئ لنا القدر إذا استسلمنا فهذا يَعني أننا ضُعفاء وسننتهي ولن نجد إخوتَنا الذين اختفوا.

كيف لأطفالٍ -للتّو يتحسسون الحياة بأناملهم- أن يختفوا بين ليلة وضحاها حتى الشرطة لا تعلم طريقهم! في البداية ظننا أن (عمار) هو فقط من اختفى، ولكنْ هناك شيء مُريب يحدث لأخي، وبينما أحاول التفكير في مصير أخي إذا بأحدِ كبار الحي وهو الشيخ (فيصل) يأتي إلى الحي. كان رجلًا في أوائل الستينيات من العمر، يرتدي جلبابًا، تظهر عليه الهيبة والشموخ. قام بجمع كل الآباء الذين اختفى أبناؤهم، كانوا بالتقريب ثمانية، جلس بهم في وسط الحي ، لقد كان الكلام مسموعًا للجميع ، بدأ حديثه قائلًا:

- أعلم أنكم مَوجوعُون على أبنائكم، ولكن ما حدث هو أمر يخص سيادة وأمن البلاد.

انزعج الأهالي من الكلام، وبدأوا يتحدثون فيما بينهم بصوتٍ أَحدثَ جلبة في المكان، ثم أتبَع الشيخ (فيصل):

- أرجو منكم الهدوء، سوف أقول لكم ما بُلِّغتُ به وما عَلمتُه، فأرجو منكم الهدوء والإنصات جيدًا لِما سوف

أقوله. بالأمس قام بعض الأطفال بمدرسة عمر بن الخطاب للتعليم الأساسي بكتابة عبارات مُسيئة للرئيس، وهذا أمر غير جيد بالنسبةِ لأطفال لا يعلمون ما يفعلون، ولا يُقدِّرون حجم المُصيبة التي وضعوا أنفسهم وأهليهم فيها؛ فالبلاد مهددة من كل حدب وصوب، وجميعكم رأيتم ما حدث في مصر وليبيا وتونس، ونحن لا نريد أن نصل إلى هذه الدرجة.

قاطعه أبي قائلًا:

- وهل من المعقول أن يتم القبض عليهم يا شيخ (فيصل)؟

- أنا لم أَقُل أنه قد تم القبض عليهم يا أبا (عمار).

- حسنًا، لم يتم القبض عليهم، إذًا أين هم الآن؟

أَحدثَ كلام أبي ثورةً عارمة بالمكان، وبدأ الناس يسألون الشيخ (فيصل) نفس سؤال أبي: أين هم الآن؟ فما كان للشيخ (فيصل) إلا أن ردَّ قائلًا:

- أبنا ؤكم في الحِفظ والصون، يتم التحقيق معهم عما بدرَ منهم، كالأب الذي يُقوِّم أبناءه عندما يقومون بفعل خاطئ.

ردَّ أبي عليه قائلًا:

- إذًا أنت تعلم أين هُم!

- نعم أعلم، وهذا ما وددتُ أن أقوله منذ قدومي ولكنكم قاطعتموني كثيرًا.

عمَّت الفرحة أرجاء المكان، وبدأ الأهالي في احتضان بعضهم البعض، وعمت الضحكات والزغاريد. أما أنا، فلا أعلم ماذا فعلت وقتها، لقد كنت أتابع ما يحدث من بيتنا في الطابق الثاني، وما إن سمعتُ الشيخ (فيصل) يقول هذا حتى وجدتُ نفسي أسفل البيت وفي حضن أبي، وانهمرت في البكاء من الفرحة، ثم أتبَع الشيخ (فيصل) قائلًا:

- يا أحبائي، نحن في كفة واحدة، وأبناؤكم هم أبنائي، ولهذا عندما عَلمت بالأمر، تواصلت مع بعض المسؤولين حتى علمتُ مكان أبنائكم، وسوف نذهب سويًّا إلى مكانهم لنرى كيف سنقوم بإخراجهم، وإعطاء كافة الضمانات للحكومة على التزامهم فيما بعد.

- أحسنتَ القول، يا شيخنا. كان هذا رد أبي.

ذهب أبي مع بقيَّة أولياء أمور الطلبة بصُحبة الشيخ (فيصل) إلى مقر الأمن السياسي بالبَلدة لمقابلة رئيس الأمن، وهو أحد أ قارب رئيس الجمهو رية، وعمل مُنذ تَولِّيه السيطرة على المدينة. وجلسنا نحن في المنزل في انتظار عودة أبي بصُحبة (عمار). ذهبتُ إلى غرفة (عمار) أُطالِع صوره الصغيرة المعلَّقة على خزينة ملابسه، أتطلعُ

فيها جيدًا، أتذكر بعض المواقف الجميلة التي جمعتني به من قبل، أخي (عمار) الذي كان بالنسبة لنا اللبِنَة الصالحة التي اكتمل بها بُنيان البيت، كان أخي بالنسبة لي نصفَ أب ونصف صديق، كان ذاك الجبل الذي أستندُ عليه وقت الشدائد، كان ضلعي الثابت. بَدَأت أصابعي تتحسس وجهه الملائكي المطبوع على إحدى الصور وكأنه جالسٌ أمامي؛ وجه ملائكي أبيض تعلوه ابتسامة مشرقة، شعره أشقر لامع مُمشَّط إلى الخلف، ذو شاربٍ صغير أشقر ينمو على استحياء، ذو عينين خضراوين يملؤهما الطموح، ولكن قُوبل هذا الطموح بسُلطة فاشية لا تستمعُ إلَّا لصوتها فقط طيلة أربعين سنة، ومن يتفوَّه بشَفا كلمة يذهب إلى ما وراء الشمس، وهذا ما لا أتمناه لأخي، فلا نعلم ماذا يحدث له الآن؟ كيف ينام وما الذي يأكله؟ ما هو شعوره؟ هل يعلم أن أبي بصددِ الذهاب إليه وطَمْأَنته والعودة به إلى البيت مرة أخرى؟

بينما تُساورني تلك الأفكار إذا بـ (سيدرا) تدخلُ الغرفة وقد احمرَّ وجهُها من كثرة البكاء؛ فهي جميلة بكل ما تحمل الكلمة من معنى، أختي الكُبرى نعمة جزئية من أمي، لا أُحبُّها فقط، بل أستندُ عليها كأنّها أكثرُ الأشياء ثَباتًا في عالمي. اقتربتُ منها ثم ما لبست أن دَنوتُ منها واحتضنتُها، وبدأنا في البكاء معًا، انهمرت الدموع منَّا، ثم

خرجت من حِضنها الدافئ دومًا، نظرت إليها وأنا أحاولُ جاهدةً أن أُسيطرَ على حزني:

- لا تقلقي يا (سيدرا)، سوف يعود مرة أخرى، فأبي ذهب ليأتي به.

- يا رب، لا نستطيع أن نفعل شيئًا سوى الدعاء يا (نُوچين).

مرَّت عدة ساعات؛ وعاد أبي برفقة أولياء الأمور والشيخ (فيصل). عندما شَعرنا بصوت محركات السيارات الكثيرة هلَّلنا جميعًا وكادت (سيدرا) تقع من على كرسيها المعدني المتحرك. اتجهنا جميعًا إلى الشُرفة لنُطالع (عمار) وهو برفقة أبي، هرِعنا مُسرعين ونظرنا إلى الأسفل، ولكن كان هناك شيء غير عادي؛ فالآباء ينظرون إلى بعضهم البعض دون كلمة، ربَتَ كل واحد على كتف الآخر، نظر أبي إلينا ولكن وَجدتُ في عيناه خيبةً لم أَرَها من قبل، وما لبثَ أن نظر إلى الأرض واتجه صوب مدخل بيتنا ليصعد إلينا حتى ذهبتُ بدوري مسرعةً نحو الباب. فتحتُه وسمعت صوتَ خُطوات أبي المميزة على السُّلم، حتى وصل إلى آخر درجةٍ في السلم ودخل بوجهٍ عابس حزين، قُلت له:

- ماذا بكَ يا أبي؟

ولكن دون جدوى، قالت له أمي:

- ماذا حلَّ بـ (عمار) يا أبا عمار؟ ماذا حلَّ بابني؟

ثم ذَهبت إليه (سيدرا) وهي ممسكة بعجلات الكرسيّ تُحاول الوصول إليه، ثم قالت له:

- أين (عمار) يا أبي؟

جلس أبي على الأريكة، وأمسك برأسه وهو ينظر إلى الأرض، جَلسنا مِن حوله في ترقُّب ننتظر أن يقول لنا ما حدث إلى أخي، قالت له أمي:

- تحدَّث يا أبا عمار، ماذا هنالك؟ هل حدث مكروه لابني؟

ولكنه كان يهزُّ رأسه بالنفي وهو بنفس الوضعية؛ مُمسكًا بها ينظر إلى الأرض، ثم قُلت أنا:

- طمئِن قلوبنا يا أبي، ماذا حلَّ بـ (عمار)؟ هل عُذِّبَ؟

قام بهزِّ رأسه مرة أخرى بالنفي، أرخى يديه من على رأسه ورفعها ثم قال:

- لا أعلم ماذا حلَّ بـ (عمار).

- كيف هذا يا أبي! كيف لا تعرف!

كانت هذه (سيدرا).

ردت أمي عليه قائلةً:

- أين ذهِبتَ يا أبا (عمار)؟ وماذا حدث؟

- لقد ذهبت إلى مقرِّ الأمن السياسي بمحافظة درعا.

- ماذا؟ الأمن السياسي!

- نعم يا أمَّ عمار، الأمن السياسي. ذهبنا جميعًا، ولحَظِّنا السيء؛ عُيِّن أحد أقارب رئيس الجهورية رئيسًا له وهو اللواء (عاكف).

كنت أعلم مَن هذا اللواء، كان رجلًا طويلًا يرتدي الزيَّ العسكري بالكامل، شعره أبيض، وجهه دائريٌّ ممتلئ، أعلى خده اليمين شامة سوداء اللون ويرتدي نظارةً ذات عدستين صغيرتين لحفظ النظر، صورُه مع الرئيس كانت كثيرة ودائمًا ما يظهر معه على التلفاز، بالإضافة إلى سُمعتِه السيئة التي كانت تسبقُه. قالت أمي واضعةً كفَّيها على رأسها:

- يا أللّٰه، استرها على ابني.

ثم أَتبعَ أبي قائلًا:

- وبعد انتظارٍ طويل بالخارج أمام مكتبه؛ قاموا في النهاية بالسماح لنا بالدخول. كان يجلس على كرسي دائري، ظهره لنا، كان لا يُبدي لنا أي اهتمام، ينظر إلى صورة الرئيس المعلَّقة خلفه على الحائط. قام بالوقوف مُنتصبًا بالكامل واضعًا يديه متشابكتين خلف ظهره، ثم قال:

- مِن الممكن أن تتكلم عن الله، ولكن ليس من الممكن أن تتحدث بسوء عن الرئيس، هل تعلمون ذلك أم لا؟

نظرنا جميعًا إلى بعضنا البعض في ذهول مما يُقال، ثم ردَّ أحد الآباء عليه قائلًا:

- يا سيادةَ اللواء، نحن نعلم جيدًا قيمة الرئيس وقيمة سيادتكم في الحفاظ على أمن البلاد بالإضافة الى أمننا، ولكن هؤلاء أطفال صغار لا يعلمون ما يفعلون وسوف نَقوم بضربِهم وتعليمهم وتقويمهم، نتوسل إليكَ أن تُفرج عنهم.

رد علينا قائلًا:

- انسوا أنَّ لديكم أولادًا، اذهبوا وأنجِبوا غيرهم.

قُلتُ له: أتوسل إليكَ، ليس لديّ ولد غيره، أرجوكَ يا سيادةَ اللواء. فما كان منه إلا أن أدار إلينا ظهره مرة أخرى، ونظر إلى صورة الرئيس وقال: إذا لم تكونوا رجالًا بما يَكفي لتُنجِبوا غيرهم، فأحضِروا لنا زوجاتكم وسننجبُ نحن لكم أولادًا غيرهم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني
رَحِيلٌ

(ماتت نصف أحلامي معه كما دُفن قلبي بجواره)

صباح يوم الجمعة ١٨ مارس، ٢٠١١.

بعدما فقدنَا الأمل في عودة (عمار) وبقيةِ الأطفال؛ بدأ أبي ووُجهاء محافظة (درعا) في الاجتماع. أسفرَ هذا الاجتماع عن الاتفاق على الخروج في مظاهرات سِلميَّة بعد صلاة الجمعة للمطالبة بعودة الأطفال مرة أخرى، فنحنُ مجتمع قبَلي ولا نقبلُ الإهانة من أي مخلوقٍ مهما عَلا شأنه أو كان منصبه.

وبالفعل في صباحِ يوم الجمعة (١٨ مارس، ٢٠١١)؛ قام أبي بتحضير نفسه للذهاب إلى الصلاة في الجامع العُمَري؛ الذي يبعُد عن بيتنا أمتارًا قليلة. كان هذا اليوم مشحونَ الأجواء، وكان هناك استنفار أمني لأقصى درجة؛ حتى أن عربات الأمن كانت تتمركز أمام جميع مساجدِ المحافظة، وكأنَّهم كانوا يعلمون بأن هناك مظاهرات سوف تخرج في هذا اليوم، ولِمَ لا؟ فنحن بلد (الحوائط لها آذان). وبالفعل في ذلك اليوم بدأت خطبةُ الجمعة وكانت رسالتها واحدة في جميع مساجدِ المحافظة، كان إمامُ المسجد منهم يحثُّ على اللحمَة الوطنية وتكاتف

الشعب مع الجيش والأجهزة الأمنية للقضاءِ على أيّ فتنة ومواجهة كل من يحاول الخروج عن الحاكم؛ كي لا نكون مثل تونس ومصر، وليتَهم يعلمون أن مصر وتونس هما الناجيتان الوحيدتان إلى الآن. كنت في هذا اليوم أقف في شرفة البيت أستمعُ إلى الخطبة، كان الخطيب يتحدث عن الفتنة والتكاتف وطاعة ولي الامر وان لا ننساق وراء الشائعات حتى لا نكون مثل مصر وتونس، كنت أَترقب ما سوف يحدث ويدِّي موضوعة على قلبي خوفًا على أبي. ومع التسليمة الأخيرة في الصلاة؛ بدأ بعض الشباب في الخروج من المسجد وهم يُرددون (الله.. سوريا.. حرية.. حرية.. حرية فقط) للإشارة بالإفراج عن أخي (عمار) وأصدقائه. وما لبثوا حتى انضم إليهم جميع من في المسجد؛ الكبير منهم والصغير، ثم تحرَّكوا حتى وصلوا إلى مقرُبةٍ من بيتنا، أصوات الجموع لم ترقَ إلى اللواء (عاكف) الذي كان يقف مع قواته، وما كان له إلا أن قام بسبِّ المتظاهرين وأمر الجنود بضربهم بالهِراوَات ومؤخرات البنادق، فبادرهم الشباب بالطوب؛ حتى قام الجنود بحماية اللواء (عاكف) وقاموا بتهريبه من المكان. بعد هروبه تمركزَ الجنود في مكانهم وبقِيَ الحال كما هو عليه من وقتها، واستمر المتظاهرون في الهتافِ (الله.. سوريا.. حرية.. حرية.. حرية فقط). كنت ألمحُ أبي بين الحين والحين وهو يردد نفس الهتاف رافعًا صورة

(عمار)، موقف لم أَرَه من قبل على أبي؛ فهو هادئ الطِباع دائمًا، لا يحب أن يفتعلَ المشاكل، وقامت جِهة عمله بتكريمِه بلقب (الموظف المثالي) من قَبل على حسن خلقه واجتهاده في العمل. وعندما كنَّا نراقب الأحداث أنا و (سيدرا) كانت أمي تجلس على سجادةِ الصلاة تقرأ القرآن وتدعو الله أن يفرِّجَ عن (عمار) وأن يحافظَ على أبي وعلينا جميعًا. وبعد نصف ساعة تقريبًا من المناوشات بين الأمن والمتظاهرين؛ لمِحنا بعض الحافلات الكبيرة التي تقِّلُ الركاب وقد دخلت بالقرب من الجامع العُمَري، ودلِف منها أشخاص استطعنا أن نراهم بوضوح لقرب الجامعِ منَّا، كانوا مُلثَّمين ذوي بِنية جسدية قوية، صُلعًا وذقونهم كبيرة، يرتدون سترات سوداء مكتوبًا عليها من الخلف (قوات الأمن المركزي).

نظرت إلى (سيدرا)، ثم مَسَكت يدي في خوفٍ وقالت:

- ما هذا يا (نُوچين)؟ هل أعضاء الأمن والجيش يُطلِقون اللُحى؟!

سَمِعت أمي سؤالَ (سيدرا) ثم نظرت نَحونا وصدَّقت ما قرأته من القرآن الكريم وقبَّلت المصحف ووضعته على سجادةِ الصلاة، واتجهت نحونا ثم قالت في خوف:

- ماذا هُنالك يا بنات؟

أشَرْتُ لها بإصبعي نحو هؤلاء الأشخاص. ثم قالت:

- يا أللّٰه، يا مُنجِّ نَجِّنا. اللهم اضرب الظالمين بالظالمين، وأخرِجنا منهم سالمين. أين جوَّالك يا (سيدرا)؟

- ها هو يا أمي.

- قومي بطلب أباكِ بسرعة.

طلبت (سيدرا) أبي على الجوال ولكن دون إجابة، فبالتأكيد لن يسمعَ الجوال وَسط هذه الجموع وهذه الأحداث. وبينما كنَّا نُعاودُ الاتصال به إذ بصوتِ طلقاتِ أعيرة نارية أَطلقها هؤلاء الأشخاص الذين نزلوا من الحافلات تجاه المتظاهرين، أمسكت أمي بي ودَفعتني إلى الداخل، ثم أَمسكت الكرسي المتحرك الخاص بـ (سيدرا) ودَفعته للداخل وأغلقت الشرفة، وبدأت في الإمساك بتليفون (سيدرا) وطلبت أبي مرارًا وتكرارًا، ولكن دون جدوى. أمسكت (سيدرا) المصحف وبدأت في قراءة القرآن الكريم، وجلستُ أنا بدوري على الأريكة حاضنةً لقدميِّ الاثنتين، واضعةً رأسي عليهم وأنا أبكي، أهتزُّ إلى الأمام والخلف في حركةٍ لا إرادية مع استمرار طلقات الأع يرة النار ية. ذ ظرت أمي إل ينا وتَمَا لكت أعصابها وحاولت تَهدِأَتي وتهدئة (سيدرا).

سمِعنا دقات قوية على الباب كادت أن تَقتلعه ، وإذ بصوت أبي:

- افتحوا الباب يا بنات، افتحوا الباب!

هرعتُ نحو الباب وفتحت لأبي واحتضنتُه وأنا أبكي بشدة، ثم قال:

- لا تخافي يا (نُوچين)، أنا بخير يا حبيبتي.

ذهب أبي نحو أمي و (سيدرا)، وقد حضنَ أمي وقام باحتضانِ (سيدرا) وتقبيل جبينها، ثم قال:

- لا تخافوا يا أحبَّتي، فأنا بخير.

ردَّت أمي:

- ماذا هُنالك يا أبا (عمار)؟ ما صوت هذه الطلقات النارية ومَن هؤلاء الأشخاص؟

- لا أعلم يا أمَّ (عمار)، لقد خَرجنا مُسالمين للمطالبة بخروج الأطفال، وإذا بهم يُرسلون إلينا هؤلاء الجنود الذين أطلقوا الأعيرة النارية علينا.

ردَدتُ قائلةً:

- وهل هؤلاء جنودنا؟! هل الجيش يُطلق اللُحى يا أبي؟

- لا أعلم يا بُنيَّتي مَن هؤلاء! الغريب أنهم لم يقوموا بالتفاهم مع أي شخص، فقد كانت لُغتهم الوحيدة النار.

ردَّت أمي:

- وهل حدث مكروه لأحد؟

نظر إلينا ثم ذهب الى الأريكة وقال:

- نعم، لقد استُشهِد شابَّان.

ردَّت (سيدرا):

- وهل نعرفهم؟

- نعم يا ابنتي، عبد الله السبيعي وفهد العباس.

رددنا جميعًا بتأثُّر شديد وبكاء:

- لا حول ولا قوة إلا بالله!

سألتُ أبي ببكاءٍ:

- وماذا بعد يا أبي؟ قَتلوا المتظاهرين، فماذا فعلوا بـ (عمار)؟

ذهب إليَّ واحتضنِّي وقَبَّل رأسي، ثم قال وهو يمسحُ على شعري بيديه الحنونتين:

- لا تخافي يا ابنتي، إن شاء الله سوف أُخرِجُه ما دُمت حيًّا.

بعد عدة ساعات؛ أرسلَ اللواء (عاكف) إلى وُجهاء (درعا) ومشايخِها رسالةً مَفادها أن يقوموا بدفن الشهيدين اللذيْن استُشهِدا في المظاهرات الساعة

السادسة صباحًا؛ عن طريق سيارة نقل الموتى وبدون إقامة جنازة لهم مَنعًا للتجمُّع. فما كان من الأهالي والمشايخ إلا أن رفضوا الانصياع لهذا الطلب، وأرسلوا إليه رسالةً مَفادها أنهم لن يقوموا إلا بإكرام الميِّت وطالَبوا بإخلاء سبيل الأطفال وإقالة المُحافظ. وعند الصباح؛ حضَّرَ أبي نفسه للذهاب إلى الجنازة ودفن الشهيدين.

- يا أبا (عمار)، هل من الضروري أن تذهبَ للجنازة؟

- كيف تقولين هذا يا أمَّ (عمار)! هؤلاء إخوتنا وأبناء آبائنا ومثلهم ومثل (عمار)، وواحد منهم في عمره والثاني في الثامنةِ عشر من العمر؛ أي من عُمرِ ابنتك (نُوچين).

- اذهب يا أبا (عمار)، الله يَحرُسُك وهو معك بإذن الله.

قبَّلَ رأسها وذهب إليَّ في غرفتي وأنا نائمة، قبَّلَ رأسي ثم ذهب إلى (سيدرا) وقبَّل رأسها أيضًا، وأغلقَ الباب الذي أيقظني. ذهبتُ إلى أمي وسألتُها عن أبي. أخبرتني بأنه ذاهبٌ إلى دفن شهيديِّ المظاهرة.

لم تمُّر سوى بضع دقائق؛ حتى سمعنا أصواتَ طلقات الأعيرة مرة أخرى، عندها انقبضَ قلبي، وما انقبض قلبي قطُّ كما انقبض وقتها.

هَرولنا نحو الشرفة وفتحناها بحذرٍ نختلسُ النظر لنُتابع ما يحدث؛ حتى وجدنا أحد الأشخاص وهو يحمل أبي على يديه والدماء تسيل منه متجهًا نحو الجامع العُمَري. صَرخنا ثلاثتُنا وهَرولنا جميعًا نحو الباب، ورجِعت أمي إلى المنزل مرة أخرى لترتديَ نقابها، نظرتُ أنا وأمي إلى (سيدرا) التي كانت تبكي بشدة كحالِنا، حاولنا أن نحملها لننزِلَ بها إلى الأسفل، جَاهدنا حتى استطعنا إنزالها في النهاية، أَمسَكت بكُرسيها وهَرولت مُسرعةً نحو الجامع العُمَري الذي اتَّخذه المُتظاهرون كمُستشفى ميدانيٍّ؛ وذلك لقبضِ الأمن على المُصابين الذين يذهبون إلى المستشفى الوطني بدرعا.

ذَهبنا لنطمئن على أبي، دخلنا الجامع العُمَري الذي رأيتُ فيه مشهدًا لن أنساه ما حييتُ؛ الدماء كانت منتشرة في أرجاء المكان، صوت الصرخات والاستغاثات لا يُعطيكَ الفرصة كي تسمعَ من يقف جانبك، مناظر تقشعرُ لها الأبدان، هناك من أُصِيبَ في رأسه بطلقاتٍ نارية، وهناك المُصاب في صدره، وهناك المُصاب في قدمه، بكاء وعو يل وهرو لة من الجمي ع، يحا ول الجم يع إنقاذَ المصابين. حاولنا أن نعثُرَ على أبي؛ فاتَّجهَ كلٌّ منا في اتجاه مختلف عن الآخر، ذَهبتُ إلى أحد المُصابين لعلَّه يكون أبي، كان هناك شباب كثيرون مِن حوله وصوته قريب من

صوت أبي، كان يتألمُ بشدة، حاولت أن أَنحِّي الشباب جانبًا، وبالفعل نجحتُ حتى وصلت، ولكنه لم يَكُّن أبي. انصرفتُ عنهم ثم اتجهتُ إلى مُصاب آخر، وإذ بي أسمعُ صوت أمي:

- أبا (عمار)، لا تتركني، لا تتركني يا أبا (عمار).

أُحاولُ أن أكذِّب سمعي، أهُزُّ رأسي بالنفي، أُحاول الذهابَ أيضًا إلى أمي، لَمحتُ (سيدرا) تذهبُ رويدًا رويدًا نحوها، ذهبت إليها في خُطى مُتثاقلة، لا أريد أن أذهب لكنِّي أريد أن أطمئن. وجدتُ أمي مُفترشةً على أرض الجامع وعلى قدميها أبي وهو ملطخٌ بالدماء شاخص البصر نحو السماء بوجهٍ بشوش وابتسامة ارتسمت على وجهه وكأنَّه يرى الملائكة، كأنَّه يرى مقعده من الجنة، كانت أمي تبكي بشدة وتهتزُّ إلى الأمام تارةً وإلى الخلف تارةً أخرى، تمسح بيديها على جبين أبي وعلى خديِّه. وجدتُّ (سيدرا) قد اقترَبت من أمي حتى أصبحتْ مُلاصقةً لها، كانت شاخصةَ البصر تنظر إلى أبي ودموعها تسري بغزارة دون أن تبكي، لحظات ووجدتُها سقطت على الأرض حتى أصبحت بصُحبة أمي. أَمسكت بيدِّ أبي وبدأت في تقبيلها ووضعِها على خديها، أما أنا؛ فكان عقلي لا يصدِّق أنه مات! أخطو إليه بخطواتٍ مُتثاقلة حتى وصلتُ له، ليت

لقائُك يعود ولو يومًا، حتى ولو ساعة حتى ولو دقائق معدودة.

سأكون ممتنةً كثيرًا وسأنسى حينها كل ما أَصاب قلبي من ضيقٍ عند موتك، لم يخطُر ببالي أنك قد تُغادر يومًا، حينما رأيتُك وأنت تغادر إلى الله؛ قُبِضَ قلبي وما زال مُنقبضًا إلى الآن لم ينبسط. ألـَن تعود؟ أنتَ فقط الذي بإمكانه بَسط عضلات قلبي حتى يعودَ لنبضه من جديد، رأيتُك يومًا في حُلْمي، قد كان حُلمًا جميلًا ليته طال! لا أحد كالأب، لا أحد يُشبهه، فعندما مات أبي ماتت نصف أحلامي معه كما دُفن قلبي بجواره، عندما مات أبي فَقدتُ عكازي وأصبحت أسيرُة بقلبٍ أعرج.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثالث
العَوْدَةُ

(أخبِري الموت أن ينتظرني خارج الأرض)

بعد عدة أيامٍ من الضغط الشعبي والقتل المُتعمَّد من قِبَل السُّلطة؛ رَضخت الحكومة أخيرًا إلى مطالب أهل (درعا) وأعلنوا الإفراجَ عن الأطفال ولكنَّ الوقت كان قد فات، فالمطالبُ الآن ليست الإفراج عن الأطفال فقط؛ بل رحيل النظام بأكمله، فمن الصعبِ التفريط في الدماء التي سالت على أرض (درعا)، وأصبح خبر الاشتباكات يَسري كالدخان في جميع مناطق سوريا، أصبحت المطالب لا تخصُّ أهل (درعا) فقط بل سوريا بأكملها. بعد مقتلِ العديد من المدنيين الأبرياء حتى عند الإفراج عن الأطفال الخمسةِ عشر -لم يكونوا خمسةَ عشر بل أصبحوا ثلاثة عشر-فقد قُتل اثنان من الأطفال على أيدِّي قوات النظام، فهذان الطفلان لم يستطِع جسدهُما النحيلان تَحمُّل وَصَلات التعذيب المتكررة. وعند حلول مساء يوم ٢٢ مارس؛ إذا بالبابِ يدقُّ، فزِعنا جميعًا فالخوفُ أصبح مُسيطِرًا علينا بعد فَقدِ أبي وحبسِ أخي. اقتربتُ من الباب وإذا بصوتِ هَمهمةِ شخصٍ ما، اقتربتُ

رويدًا رويدًا من الباب حتى وصلتُ ثم وضعتُ أذني على الباب وقُلتُ في صوتٍ يكاد يكون مسموعًا:

- مَن بالخارج؟

- افتحي يا (نُوچين)، أنا (عمار".

فتحتُ البابَ بسرعة، وقتما سمعته احتضنته وأغلقتُ البا ب، همَّت أ مي إلي نا وجاءَت (سيدر ا) بسرع ةٍ وبدأنا نُقبِّل (عمار) كثيرًا، دموعٌ ممزوجة بالخوف والحزن والسعادة من الجميع، ومع الفرحة لم ندرك ما حلَّ به إلا عندما ترك حِضني وأمسكتُ يديه فأحسستُ بشيء غريب، بد أت أَتلمَّس أطر اف أصا بع يد يه ف لم أجد أظافره، لقد اقتلعوها! كيف هذا؟ ما هذه الوحشية؟! أليس في قلوبهم رحمة؟! نظرت إليه وأمسكتُ بوجهه ووضعتُ جبيني على جبينه وصرختُ وبكيت متألمةً لتألُّمِه عندما لمستُ موضع أظافره. نَظرت أمي إلى يديه وما حلَّ بها فوقعت مَغشيةً عليها من هَولِ الصدمة، فحاولتُ إمساكَها أنا و)عمار)، ثم حاولنا إفاقتَها بالمياه و لم نَفلح، حاولنا بالبصلِ حتى استفا قت ثم وَضعناها على الأريكة وما لبثت حتى احتضَنت (عمار) والدموع تزرفُ من عينيها بغزارة. نظرت أمي إلى ثلاثتنا ثم إليَّ أنا و)سيدرا) في حيرةٍ ولِسان حالها يقول: ماذا علينا أن نفعل الآن؟ كيف نُحافظ على أخي من بَطش نظامٍ لا يرحم؟

فهو لا يَقوى على أي شيء، كيف سيتلقَّى خبر وفاة أبي؟ فهو لا يزال صغيرًا على كل هذا الحزن. نظرتُ من حولي فوجدت كوبَ ماء موضوعًا على الطاولة، ذهبتُ مسرعةً نحوه ثم أعطيته الكوب، شَرب الماء بشراهةٍ وكأنَّه قادمًا من الصحراء، جَلسَ في مُنتصف الأريكة ونحن بجانبه، ثم قال:

- أين أبي؟

نظرنا إلى بعضِنا البعض لا نعلم ماذا نقول له، نُحاول أن نُؤخِّر صدمة لا بُدَّ منها، رددتُ عليه مُتصنعة القلق:

- أخبِرني أولًا، ماذا حدث؟ لماذا أَقحمتَ نفسك في كل هذه المتاعب؟

- كنتُ أريد أن أُقَلِّدَ شباب الثورة في مصر وتونس وليبيا في الكتابة على الحوائط، ثم ذهبت لأشتري طلاءً برِفقة أصدقائي وعَقدنا العزم على الكتابة على حائطِ مدرستنا، ذهبنا إلى المدرسة في الصباح قبل اليوم الدراسيِّ المُعتاد، ثم أَخرجَ كلٌّ واحد منا طلاءَه وبدأ في الكتابة. لقد كتبتُ عبارة (حان دورُكَ يا دكتور)، ومع بداية اليوم جاء الأمن ورَأوْا العبارات المكتوبة على سور المدرسة؛ فأغلقوا المدرسة وأمروا التلاميذ بكتابة جميع العبارات المكتوبة على السور، فعَرفوا أنني مَن كتبتُ إحدى العبارات عن طريق الأخطاء الإملائية الموجودة بالعبارة، بالإضافة

لتطابُق خَطِّي أنا وتلاميذ آخرين مع الكتابات المكتوبة على سور المدرسة، ثم جاؤوا إليَّ وقالوا لي أنَّ خَطِّي جميل وهم يريدون أن يَعطوني هَديةً مُكافأةً لي على خطِّي، فاقتادَني اثنان من الأمن نحو باب المدرسة، وبينما هم مُمسكون بي نظرتُ خلفي فوجدتُ أكثر من عشرة تلاميذ مِن ضمنهم أصدقائي الذين كتبوا معي؛ فأدركتُ أنهم يُريدون القبض علينا، حاولتُ الهرب منهم ولكن لم أُفلح.

- ماذا فعلوا بكَ يا بني هناك ؟ كيف كنتَ تعيش ؟ ماذا تأكل وماذا تشرب؟ وما كل هذه الكدمات؟ قلبي موجوع عليكَ يا بني.

- كانوا يُجردوني من ملابسي ويقُومون بضَربي بأسلاكٍ كهربائية وخراطيم مياه، ويقتلعون أظافري، وعندما تنتهي وَصلة التعذيب كانوا يضعوني عاريًا في غرفة لا تزيد عن نصف متر في نصف متر ويقومون برشِّ المياه المُتَّسخة فيها.

- يكفي يا (عمار).

قُلتُها وأنا أبكي وجَميع مَن في البيت كذلك، كيف يجرؤون على فعل ذلك مع أطفال بالكاد يتعرَّفون على أحلامهم؟ كيف يقومون بقتلِ براءَتَهم و تحويلهم إلى وحوش أو منكسرين؟ كان هذا من أصعب الأوقات التي مرت عليَّ.

نظر (عمار) إلى أمي وقال:

- أين أبي يا أمي؟

قالت له (سيدرا):

- هيَّا يا (نُوچين)، اذهبي لتُحضِّري ا لتبولة التي يُحبها (عمار)، أَلستَ جائعًا يا (عمار)؟

- ماذا تُخبِّئون؟ لماذا تُحاوِلون أن تتهربوا من سؤالي عن أبي؟ هل حدث مكروه لأبي؟ أين هو يا أمي؟

ذهض مسرعًا نَحو غرفة أبيه ثم بقية غرف المنزل وأنا خلفه، وأخذَ يردد (يا أبي، أين أنت؟ يا أبا عمار، يا أبي) ثم قالت أمي:

- أبوكَ بين يدي الله الآن يا (عمار).

- لا لا، لا تقولي هذا، أبي على قيد الحياة، أبي لم يُفارقها، يا أبي يا أبي!

ذهب نَحو باب البيت ثم فتح البا ب وذهب مسرعًا مُتجهًا نحو الحي، ذهبتُ خلفه مُسرعةً مُخلفين وراءنا بُكاء أمي و)سيدرا). هرولتُ نحوه حتى لحقت به فأمسكتُ بيديه ثم قُلتُ له في حزن:

- أين تذهبُ يا (عمار)؟

- أنا ذاهب إلى أبي، أريد أن أراه، أريد أن أتحدث معه.

- والدُنا ماتَ يا (عمار)، مات!

- ماتَ! إذًا فلتَأخُذيني إليه يا (نُوچين)، خُذيني إلى المقابر.

- حَسنًا يا أخي.

قُلتُها وأنا مُشفقة عليه، عقله لا يريد أن يتقبَّل فكرة موت أبي، نظرتُ إليه ثم اصطحبتُه وذهبنا نحو المقابر برِفقة أحد شباب الحي لحمايتنا من الطلقات النارية التي تَدوي في سماء (درعا)، فقد أصبح هذا شيئًا عاديًا بالنسبة لنا. كُنَّا نتسحَّب كاللصوص، نُخفِض رؤوسَنا في الظلام حتى لا يرانا أحد، نتخطَّى بيوتًا شِبه مهجورة من السكان بفعل الأحداث الدائرة، كانت السماء قاتمةً، والجو مشحونٌ نسمع الطلقات النارية فيما حولنا، وبعد دقائقٍ؛ وصلنا إلى المقابر بعدما سَلكنا طُرقًا لأول مرة نراها، حيث قام شباب الحي بتمهيدها للهروب من أعين قنَّاصة النظام، وعند وصولنا نظر إلينا الشابُّ ثم قال:

- لا تتأخروا، خمس دقائق على الأكثر حتى لا تصطادُنا أعين القناصة.

- حسنًا، لن نتأخر.

ذهبنا نحو قبر أبي، وجلس (عمار) بجانبه وبدأ يتحسسُ القبر بيديه من الأسفل حتى وصل إلى رأسه وقال:

- أبي، كيف تتركني وحدي؟ كنتُ في انتظارك يا أبي. لا تغضب مني بسبب ما فعلت، لقد كنت ألهو مع اصدقائي، كنت أريد أن أُقلِّد الأطفال كما هو الحال في مصر وتونس، عُد إليَّ ولن أفعل هذا مجددًا، لم أَعتَد غِيابك عن البيت، كيف أعود ولا ألقاك؟ أنت صديقي فكيف لك أن تتركني بمفردي؟ صداقتك كانت في كبِدِ السماء قمرًا وكان جميع أصدقائي نجومًا بعيدة، هل تتذكرُ حامل المصحف الخشبي الذي أهديتُه إليك؟ لعلَّ ما قَرأتَه عليه يُنير قبرك يا أبي. أَتذْكُر كل ما علمتني إيَّاه؟ عَلمتني الصلاة والدعاء وآخر ما علمتني إيَّاه قبل القبض عليَّ هو أنه إذا رحلتَ فإنَّ الله لن يرحل عني. في آخر لقاءٍ لنا تمنيتُ أن أُعانقكَ بشدة، عناق يكفيني لكل هذه السنين القادمة التي سوف تخلو منك.

أَغمضَ عينيه من فَرط البكاء لثوانٍ، عَمَّ الصمت ثم قال:

- لم أتصور أن يأتيَ اليوم الذي أُغمِض فيه عيني لأتذكرَ ملامحك.

قالها ثم نهض ونظر إليَّ، ثم نظرَ إلى قبر أبينا وقال:

- والله لن أتركَ حقك يا أبي.

كانت كلُّ كلمة يُخرِجها (عمار) تَقتُلني حُزنًا، قال ما بداخله وكأنَّه يعرف ما بداخلي، كانت في روحي تلك

الأَمسيات التي جَمعتنا حتى ظننتُ من جهلي أننا لن نفترقَ، ولكن كان أمر الله، وكان الفراق. أشعر كل ما يشعرُ به (عمار)، فلا كَسر لقلب فتاة كفقدِ والدها. بدأ الشاب الذي أَوصَلنا إلى المقابر بالإشارةِ إلينا بانتهاء الوقت كي نعودَ، نظرتُ إليه وأشَرتُ إليه بأننا انتهينا وسوف نغادر، أمسك (عمار) بيدي، وبدأنا رحلة العودة إلى البيت؛ والتي أصبحت محفوفةً بالمخاطر، فلقد مرَّ على وجودنا أكثر من خمس دقائق . اتَّخذنا طريق العودة وكان هذا الطريق مُغايرًا للذِّي سلكناه في رحلة الذهاب، سألتُ الشاب:

- لماذا لم نسلُك الطريقَ الذي جِئنا منه؟

- لأنَّ الطريق الذي سلكناه أولًا أصبح مُمتلئًا بالقوات النظامية، ويجب علينا تغيير طريق العودة، لقد اعتدنا على ذلك، لا تخافي.

نظر إليَّ مبتسمًا ومَشى أمامنا، وفعلنا كما فعلنا في السابق، أخفَضنا رؤوسنا، وبدأنا في التحرك بخطواتٍ بطيئة يشُوبها الحذر؛ حتى وصلنا إلى البيت، وعندما رأينا البيتَ رفعنا رؤوسَنا وذهِبنا مسرعين حتى وصلنا إلى بابِه، نظرت إلى ذلك الشاب الذي كان مُلثَّمًا طوال هذه الرحلة القصيرة، رفع يده مُلوِّحًا بالسلام ولوَّحتُ له بدوري، ثم هَرولنا أنا و)عمار) حتى وصلنا باب البيت. وما إن بدأنا

بطرقِ الباب حتى فتحته أمي بسرعة؛ وكأنَّها كانت مُلازِمةً للباب تنتظرُ عودتنا. دلفنا إلى البيت وخيَّم الحزن على البيت كله، ونزلت الدموع سخيَّة وحارقة ولكنها كانت تغسل القلوب وتُرِيح النفوس، مئات الأحاديث المختنقة بداخلي، لا أعلم ماذا أفعل وماذا أقول، وكأنَّ الحزن افترش قلبي ولن يذهب منه أبدًا، حاولتُ أن أُوقِفَ الوقت وأتَّكِئ على جدار الزمن وأُخبِر لحظةً عابرة محملة بروائح الموت وأقول لها:

أخبِري الموت أن ينتظرني خارج الأرض، ينتظرني حيث يقبعُ في بلاده؛ ريثما أُنهِي حديثًا عابرًا فيما تَبقَّى من حياتي البائسة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الرابع

جَحِيمٌ

(إحساس الفقد مُرهقًا، إحساسًا مُوجِعًا مُبكِيًا)

مايو ٢٠١٤.

بعد مرور ثلاثة أعوامٍ على هذه الأحداث؛ تغيَّرت سوريا كثيرًا، لم تعُد سوريا التي نعرفها، وكذلك لم تعد بلدتُنا (درعا) كما نعرفها، كل شيء قد تغيَّر، تحوَّلت المدينة إلى مدينة أشباح؛ فحُطام المباني والأنقاض والقذائف الفارغة وطلقات الرصاص كانت كل ما تمتلِكه المدينة، الطرق شبه خالية من العمارة، أصبحت المنازل وكأنَّها مهجورة رغم أنها مسكونة مما تبقَّى من أصحابها، المشهد السُكاني في المدينة تغير كُليًّا؛ بعد أن نَزح العديد من الأسر إلى البلاد المجاورة مثل الأردن ومصر ولبنان وكذلك أوروبا، ومَن آثَرَ البقاء بالمدينة فقد عاش ليرى أحد أقاربه يُقتَل أمام عينيه، أو يُعتقل عزيزٌ عليه، أو يتم اختطافه من قِبَل الجماعات المُتناحرة.، المحال محطَّمة بعد أن حُصِرت المدينة وكانت ترزحُ تحت التفجيرات والقصف المتكرر. كنَّا نعيش في مأساة؛ فنصف الأطفال توقَّفوا عن الدراسة، حدثت كارثة في المجال الصحي سمحت بانتشار عدة أوبئة، وأصبحت المدينة مليئةً

بالجرحى ومعطوبي الحرب كالذي فقد قدمه أو يديه أو بصره، أو أصبح عاجزًا كُليًّا بسبب هذا القصف. كانت (درعا) مدينة زراعية خضراء تزخرُ بالعديد من الحدائق والحقول وأشجار الفاكهة، ولكن أصبحت تلك الحقول مُقْفِرة قاحلة، والأشجار المثمرة يابسةً، في ذلك الوقت أكادُ أُجزِم بأن مظاهر الحياة الطبيعية كانت شبه منعدمة؛ فالخبزُ شحيح، والمياة المتوفرة ملوَّثة ولكن كنَّا مُرغَمين على شُربها ، ولا توجد مدارس أو مساجد أو كنائس، فقط أصوات القذائف والبراميل المتفجرة، بعد ثلاثة أعوامٍ من الثورة ليس هذا ما كان أخي يتمناه ولا ما تمنيناه نحن بعد فقد أبي؛ فلم يكن في سوريا أصوات متطرفة، كنَّا نبكي دمًّا بعدما انحرفت الثورة عن مسارِها وبدأ التجييش الطائفي، كنا نُطالب بعزل الرئيس حتى تصبح الدولة مدنيةً، ولكن أصبحت الثورةً مسلحة بعدما قام النظام باستخدام القوة الغاشمة مع المدنيين، والتلويح باغتصاب النساء عند القدوم إلى (درعا) والتَّباهي بذلك من قِبل قوات النظام، فما كان للأهالي إلا التسليح كي يُحافظوا على عرضِهم، ولكن دخلت جماعات وتشكلت تنظيمات اصطادت في الماء العَكِر، وأخذت من تسليح الأهالي نقطةً لقضاء على سوريا وتحقيق مصالح خاصة بها على حساب الأهالي، حتى أن هناك مقاتلين ليسوا من أهل سوريا من الأساس، فأصبح

كل تنظيم يريد أن يُقيم دولةً خاصة به، ولِتذهب سوريا وأهلها إلى الجحيم.

في صباح أحد الأيا م؛ ذهبتُ كي أُحضِر الطعام من أحد البيوت المجاورة؛ الذي كان بيتًا سابقًا وأصبح اليوم مكانًا لبيعِ أصناف البِقالة، أمشي وأنظر من حولي إلى المباني التي اتَّسَمت في الماضي بالتصميم المِعماري المميَّز، وأصبحت الآن هياكلَ خرسانية تمتلئُ بالفجوات الناجمة عن إطلاق النيران، أنظر بحزنٍ على البيوت المُتهالكة والتي بإمكانِ أي شخص أن يرى تفاصيلَ حياة مَن بداخلها نتيجة القصف. اقتربتُ من بيت (أبي فيراس) صاحب البِقالة، كانت ابنته الصغيرة ذات الخمسة أعوامٍ تجلسُ إلى جِواره ترتدي فستانًا مُشجرًا مليئًا بالورودِ مُتسخًا قليلًا، وكان وجهُها متسخًا قليلًا أيضًا إثر لِعبها في مُخلَّفات الهدم والرُكام، كان وجهُها بشوشًا، أبيضَ دائريًا صغيرًا كالملائكة، تنظر إليَّ بابتسامةٍ مُشرقة أظهَرت أسنانها الجميلة والتي كان يُزَيِّنها سِنٌ في المنتصف مكسور قليلًا، كانت الطفلة مُمسِكة بدُمية صغيرة وتلوِّح إليَّ بالقدوم؛ فقد اعتدتُ اللعِب مَعها يوميًّا عند قضاء حاجتي من بِقالة أبيها، اقتربتُ منها أخيرًا ثم قالت لي:

- هيَّا يا (نُوچين)، لِنَلعب سويًّا أنا وأنتِ و (ماشا).

- ومَن هي (ماشا) يا (مرح)؟

– سوف أَعرِّفُك عليها، إنها صديقتي الجديدة، اشتراها لي أبي كي ألعبَ معها حتى يعود إخوتي من عند الله؛ فعندما أسألُ أبي عنهم يقول لي بأنهم عند الله وسوف يأتون إليَّ قريبًا.

قالت هذه الجملة ثم قاطعها والدها مُرتبكًا مُحاوِلًا تغيير الحديث:

– كيف حالك يا (نُوچين)؟ وكيف حال إخوتك ووالدتك؟

– الحمد لله، بخيرٍ يا (أبا فيراس).

– كيف أَخدمُكِ يا بُنيَّتي؟

– العفو يا (أبا فيراس)، أريد خُبزًا وحُمصًا وملحًا وزيتًا.

– حسنًا يا بُنيَّتي.

أحضرَ ما أردتُه وأعطاه إليَّ، ثم أَمسَكت (مرح) بيدي ونظرت إليَّ وقالت:

– أين أنتِ ذاهبة؟ أَلَن تلعبي معي اليوم؟

– لا، غدًا سوف آتي إليكِ وألعب معكِ كعادتِنا، ولكن اليوم أريد أن أذهب بسرعة لإحضار الإفطار كَيْلا تُعاقبني أمي.

– لا، اجلسي معي قليلًا يا (نُوچين).

– وعدٌ مني بأن أكون عندكِ غدًا في الصباح الباكر، ولكن أَخبِري (ماشا) بأن تستعدَ ليوم غدٍ لأنه سوف يكون طويلًا.

– لا، اجلسي معي قليلًا لأُعرِّفكِ عليها.

قاطعها (أبو فيراس):

- يكفي يا حبيبتي، غدًا سوف تكون معك.

احتَضَنت دُميتها (ماشا) وهزَّت رأسها، ونظرت إلى الأرض غاضبةً فذهبتُ إليها وقبَّلتُها ومسحت على رأسها وأقنعتها بالذهاب؛ فابتسمت ولوَّحت إليَّ ثم طَبعت قبلةً على كفِّها وأَرسَلَتها إليَّ في الهواء، كم أُحبُّ هؤلاء الكائنات الجميلة! حقًّا إنهم أحباب الله. بادلتُها نفسَ القبلة واتخذت طريقي إلى بيتنا الذي كان في نفس الشارع ولكنه في نهايته، وبينما أنا ذاهبةٌ في طريقي إذ بانفجارٍ ناري مُصاحب له وميض متوهج إثر إلقاء أحد البراميل المتفجرة على شارعنا، في تلك اللحظة؛ اهتزَّت الأرض من تحتي وفقدتُ توازني، لم أسمع سوى صفير في أذني، وقعت على الأرض ووقع عليَّ بقايا حطام إحدى البِنايات المجاورة، لحظات من الألم، الكل يهُرول، الكل يصرخ، أصوات الإسعاف والاستغاثات، الرؤيا كانت منعدمة نتيجة الصدمة التي أصابت رأسي والنيران والغبار الكثيف نتيجة حطام المباني، بدأت الرؤيا تنكشفُ رويدًا رويدًا،

استعدتُ وعيي قليلًا فأمسكتُ برأسي فوجدتُه داميًا، تسلك الدماء طريقها من رأسي حتى وجهي، وجهي اصبح رمادي، اكتسى بلون الحطام. حاولتُ النهوض مرارًا حتى استقَمتُ بصعوبة، وقفت أُعايِن الأضرار من حولي، كان الناس يسيرون بشكل متثاقل؛ الجرحى في كل مكان، الأشلاء متناثرة، والدماء كثيرة مختلطة بحطام المباني. نظرتُ خلفي فوجدت بيت (أبي فيراس) قد تَسَاوى بالأرض، حاولت الذهاب إلى هناك، أمشي بخُطى متثاقلة، جاهدتُ كثيرًا حتى وصلت إليه في النهاية. عاينتُ الأضرار فلم أجد إلا (أبا فيراس) محمولًا من أحد المُسعفين والدماء تسيل منه وهو يصيح: ابنتي ابنتي، أغيثوا ابنتي الوحيدة، نظرتُ إلى الموضع الذي تَركتُ (مرح) فيه فلم أجد إلا يد (مرح) مُمسكة بـ (ماشا) والباقي تحت الحطام! ذهبت (مرح) إلى الله كما ذهب إخوتها من قبل ، اغتالوا (مرح) ونكِلوا بأحلامها، لم تَستثنِ ها فُوَّهات الـ بنادق والـ مدافع والصواريخ فطالت وجهها البريء. قُتلَت (مرح) التي لا تعرف عن هذه الحياة سوى سِلمِها وتَجهلُ دَمويةَ الحرب، حُلمها اللعب مع (ماشا)، ذنبها الوحيد أنها وُلدَت في زمن الفتنة، عاشت طفولةً منهكة، ماتت في كل يوم من هذه الحرب حتى ارتقت روحها الطاهرة إلى بارئها. ليتني بقيتُ معكِ لنلعبَ سويًّا كما أردتِ يا (مرح). سيحاسبُنا الله جميعًا عمَّا حدث لـ

(مرح) وإخوتها، صُدِمتُ مما حدث، تذكَّرت أمي وإخوتي فاستدرتُ وتوجهت نحو بيتنا الذي كنت بالكاد أراه، كانت ا لنيران مُضرَمة في ا لمدينة و لكنّي ا ستطعت أ ن أسلُك طريقي، كانت الأرض ساخنةً جدًّا إثر الانفجار، بدأت أراقبُ الأشياء من حولي وأنا أُجاهد للذهاب إلى البيت؛ كانت عواميد الإنارة كأقلامِ الرصاص، وانحرفت أشكال الُعبوات البلاستيكية من السخونة، كان الطريق مُمتلئًا بالعظام والأشجار المُحترقة معًا والجثث المُلقاة على قارعةِ الطريق، كانت الأشلاء في كل مكان، لم أكن أشعر بقدمي حينها؛ فقد كانت تُدمِي، كان كل ما يجول في خاطري هو عائلتي أو ما تبقَّى منها، اقتربتُ من البيت فرأيت النيران مُضرَمة فيه، سألت أحد الشباب المتطوعين من سُكان المنزل فقام بإرشادي، وما إن ذهبت إلى مكانهم حتى وجدت (سيدرا) بدون رفيقها المتحرك المعدني، تُصارع بين الحياة والموت و لم أجد (عمار) وأمي، التفتُّ من حولي في خوفٍ وببكاء شديد، ثم نظرت إلى (سيدرا) التي قالت:

- لا تخافي يا (نُوچين)، أمي نزِلت خلفك للِّحاق بكِ لتُعطيكِ هاتفكِ المحمول.

حينها تذكرت أنني قد تركت هاتفي المحمول في المنزل. أمسكتُ برأسها التي قد غطَّتها الدماء وقُلتُ لها وهي

تغيب عن الوعي رويدًا رويدًا:

- ابقي معي يا (سيدرا)، لا تتركيني، ابقي معي.

- الحمد لله، لم يمر وقتٌ طويل للِّحاق بأبي، سوف أُريحُكُم وأرتاح الآن، حَملُكم لي والذهاب بي إلى سطح بيتنا لحمايتي من القصف في كل مرة كان يُشعرني بالضعف، الآن فقط أشعرُ بأنني أصبحت قويةً بدون الكرسي، أشعر بأنني خفيفةٌ كورقة شجر تتراقص في الهواء، إنني أرى أبي الآن يا (نُوچين) وهو يضحك إليَّ.

قالتها وهي تنظر للسماء مبتسمة.

- لا لا، (سيدرا) لا تتركيني يا (سيدرا)، ابقي معي، ابقي معي.

كنتُ أقولها وأنا أهُزُّ رأسها مُحاوِلةً إفاقتها، ولكنها فارقت الحياة في النهاية. شريط من الذكريات مرَّ سريعًا أمامي عند آخر نظرةٍ نظرَتها إليَّ (سيدرا). كانت هي زهرةُ بيتنا وإطلالتها المشرقة، كانت تُنير يومنا دومًا، كنت أشعر أن امي قد صبَّت حنانها كله فوق أول بناتها وهي (سيدرا)، تذكَّرت ضَحكاتنا ولعبنا وأسرارها التي كانت دائمًا ما تبوحُ لي بها ، تذكرتُ حينم ا كن ت أحكي لها ا مُشكلاتي وكذا (عمار) كانت أمه الثانية، كنا نحن حِملًا عليكِ يا (سيدرا) ولكنكِ لم تكوني حِملاً علينا أبدًا. سُحقًا للحرب التي

فرَّقت بـ ينن ا وبين من نح بهم، أصبح إ حساس الفقد مُرهقًا، إحساسًا مُوجِعًا مُبكِيًا، ذلك الشعور الذي يجعل المسافة بينك وبين من تفتقده مِداد السماء والأرض، تتحسسُ موضعَ الألم ولا تستطيعُ مُداواته، وقتها كنت أخاف أن أنام وأستيقظُ على خبر فَقدِ أمي أو (عمار) اللذَيْن لم يكونا موجودين وقت الانفجار، سألتُ العديد من السكان والشباب الذ ين كانوا مُتواجد ين ولكنهم لا يعرفون لهم طريقًا، حتى انتظرت نتيجة رَفع حطام البيت بسواعدِ شباب الحي وجهودهم الذاتية، ولكن لا أثر لأمي أ و (عمار) ، حينها أصبحتُ مشتتة لا أعلم ماذا أفعل، حائرة وتائهة، كنت وحيدة لأول مرة في حياتي، عرض عليَّ السكان المكُوث معهم في بيوتهم ولكنني كنت أرفض، كنت أُفضِّل البقاء خلف آخر جدار مُتبقٍ من بيتنا على أملِ أن يأتي (عمار) وأن تأتي أمي فيجدوني، بعد فترة من الوقت أصبحت حياتي بائسة وروحي ممزَّقة وأفكاري مُشوَّشة، كان شعوري بالملل يتضاعف، نظري ضعيف، جسدي نحيل ، وجهي باهت ككلماتٍ كُتبت بطبشور أبيض مبلل، ثمةُ سواد مُنسكب أسفل عيني، كنت أشعر أنني سأُجَن كليًّا بعد عدة أسابيع، بل أيام بل ساعات، يومي تبدَّل من موسيقى (عمر خيرت) الصباحية بصُحبة فنجان قهوة يتراقص البخار عاليًا منه في الصباح، إلى دانات المدافع وفوَّهات البنادق، بصُحبة دماء الأبرياء

وصراخ الأطفال وبكاء النساء وقهر الرجال، كانت حياتي اليومية أشبه بالجحيم بعدما أصبح النظام يقصفُ يوميًّا المدينة لوجود العديد من التنظيمات التي تحارب ضده، ولكل تنظيمٍ منهم أهدافه الخاصة وليذهب الأبرياء وتذهب سوريا للجحيم. جميع من حولي كانوا ينزحون جِراء هذا التناحر؛ حتى أنه لم يتبقَ في الحي الذي أقطنُه سوى أسرتين من أصل خمسين أسرة، الوقت كان يمر ببطء، أصبحتُ بمفردي بين أطلال بيتنا العتيق، كنت أجلس كل يوم في المساء بمفردي أشاهد أطلال بيتنا المهدوم، أتنفس أيام طفولتي بذاكرةٍ تتوكأ على خاصرة الزمن. كنت أسترجعُ شريط ذكرياتي فكانت تنهمر دموعي عندما أرى خيال طفولتي، عندما أرى خيال أمي وأخي وأبي وأختي، كنت أرى كلَّ ذكرياتنا الجميلة التي غادرت كما غادروا بيتنا الجميل، كانت عقارب الساعة تتحرك ببطء مريب، تدقُّ ويمر دهرٌ حتى تعود للدقِّ مرةً ثانية، وكأن الوقت يُعاندني ولا يُريد أن يمضي، وكأن الزمن قد توقّفَ لحظة اختفاء أمي و (عمار).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الخامس
نِزُوحٌ

(آمنتُ بأن الحياة قد كُتِبت هكذا بشقاءٍ مستمر وراحة طفيفة)

أغسطس، ٢٠١٤.

بَعد ثَلاثةِ أشهرٍ من حادث القصف؛ كنتُ لا أزال أسكنُ خَلف آخر جدار ببيتِنا؛ مُتمَسِّكة بحُلم عودةِ أمي و)عمار)، وخلال تلك الفترة تَقلَّصَ عدد الأسرِ المُتبقية في الحيِّ من أسرتين إلى أسرةٍ واحدة فقط، وتحوَّل الحي إلى حيٍّ يسكنهُ الأشباح، أصبحتُ بمفردي في خطرٍ كبير؛ فتارةً بسبب القصفِ الجوي المُستمر وتارةً أُخرى بسبب الأشقياءِ الذين انتشروا نظرًا لانعدامِ الأمن والذين كانوا يقومون باختطافِ واغتصابِ النساء. كان (باسل) هو ربُّ الأسرة الوحيدة التي بَقِيَت، دائمًا ما كان يَعرضُ عليَّ الإقامة معهم بدلًا من البقاء وحدي في العَراء، وعند رفضي كان يقوم بإحضارِ المَأكل والمشرب والملبس إليَّ، كان شابًا على مَشارفِ الثلاثين من العمر، كان حَليق الرأسِ ذا بشرةٍ بيضاء مُتوسطَ الطول، ودودًا جدًّا وعَطوفًا، كانت أُسرته مُكَوَّنةً مِن زوجته العِشرينية وطفلٍ صغير لا يتعدَّى السنتين. وفي أحد الأيام عرضَ عليَّ

الذهابَ معهم إلى خارجِ سوريا حيثُ الفِرار من مخاطر الحرب وسبيل للنجاة من الموتِ المُحدِّق بي. أَتَى لي في صباح ذلك اليوم كعادتِه لإحضارِ الطعام والشراب، ثم قال لي:

- كيف حالك اليوم يا (نُوچين)؟

- الحمدُ لله بخير. وأنتَ، كيف حالك وحال زوجتك وطفلك الصغير؟

- الحمدُ لله جَميعهم بخير. زوجتي تريد أن تتعارفَ عليكِ. أَلَم يَحِن الوقت لقدومكِ إلى منزلنا والمُكوث معنا بدلًا من النوم في العَراء؟

- لن أستطيع أن أذهبَ بعيدًا عن بيتنا؛ فأنا على أملِ رجوع أمي أو (عمار).

- اسمعي يا (نُوچين)، يعلمُ الله أنكِ بالنسبة لي ولزوجتي أُختًا، ويَعِزُّ عليَّ ما سوف أقوله لكِ، لكنَّها الحقيقة. لقد عَلمتُ أن (عمار) قد التحقَ بتنظيمِ الدولة الإسلامية وهو الآن مُغيَّب تمامًا لا يرى أمامه سِوى الانتقام لمَقتل أبيه، ذهبَ في طريق اللَّا عودة، تركَ البيت وترك الحياة ولا يريد إلَّا الموت. أما أُمُّك، فالله أَعلمُ بحالِها وأين هي الآن. لا عِلم لي إن كانت قد فُقِدَت أو اختُطِفت أو توفَّاها الله. انظري مَن حولك يا (نُوچين).

بدأ يُشير إلى البيوت المُهدَّمة والمِحال المُحطمة والحفر التي اِكتَست بها الطرق نتيجة القصف، ثم أَتبعَ:

- لا تُوجد حياة في المكان الآن، نحنُ فقط الكائنات الحيَّة الم وجودة بال مكان، وا لباقي حطام و دمار، جميع الأُسر أدركت الخطرَ الذي كانوا يعيشون فيه؛ فهَربوا هم وأبنا ؤهم إلَّا أ نا، فلم أستطِع الهربَ بسبب عدم توافُر النقود التي سوف أُعطيها للمهربين، وأنتِ تجلسين مَكانكِ على أملِ العودة، لكن مرَّ أكثر من ثلاثة أشهرٍ على القصف ولم يَعُد أحد، أنتِ لا زلتِ صغيرةً والحياة أمامك، ابحثي عن حياتكِ في وطن آخر.

كان كلامُه ينزل عليَّ كالصاعقة، أنظرُ إليه والدموع تزرفُ من عيني بغزارةٍ ولكن بدون صوت. كان جارُنا يُحدِّثني وأنا أُفكِّر وأتذكر الأيام الجميلة والمستقبل الذي رَسمه أبي لنا، ثم أتبَع حديثه:

- سوف أتركُكِ الآن وأعود إليكِ عند حلول المساء؛ لأننا سوف نتحرك عند الفجر بإذنِ الله.

تَركني وذهب، ولكنه تركَ خلفه العديد والعديد من التساؤلات والتفكير، فالواقع أصبح مؤلمًا حقًّا، لقد وَضعَ يدي على الحقيقة التي أعلمُها ولكنِّي كنت أكذِّب نفسي وأ هرب منـ ها، أهـ ربُ حتى من موا جهة نفـ سي، كانوا يسألونني دومًا وأنا صغيرة إن كنتُ أريد أن أُهاجِر بلدي

يومًا ما، كانت إجابتي دومًا: لا وألف لا، حتَّى ولو أعطوني مالَ الدنيا كلها، فأنا أحبُّ وطني كثيرًا جدًّا، ولكن بعد سنواتٍ من طَرحِهم ذلك السؤال، وبعد ما حلَّ على بلدي، أتمنّى فقط أن أعودَ طفلة صغيرة حتى أستطيع الإجابة بـ (لا)، فأنا الآن عالقةٌ بين الهجرة الإلزامية وبين الأمل والحنين والذكريات التي تشدني إلى وطني وتُعرقِل تلك الفكرة، أصبحت الحياة خرابًا يضبطه الموت، لم أعلم ماذا أفعل وقتها سوى اللجوء إلى الله الذي لا أشكو لأحدٍ سواه، فهو فقط من يستمع إليَّ بإنصات في وحدتي، هو من يعلم الخراب الذي بصدري وأنَّ القلق أصبح خليلًا لي، هو من يُنقذني كلما لجأت إليه بكل حواسي، آمنتُ بأن الحياة منذ لحظة القبض على (عمار) قد كُتِبت هكذا بشقاءٍ مستمر وراحة طفيفة، هو من يأخذني من قاع الأسى إلى النضج الذي يكوِّن شخصيتي، إلى الهدوء وسط أصوات المدافع والقنابل، إلى المعرفة التي تمنحني السكينة بعد كل مرة أطلبها منه، هو من يهوِّن عليَّ تلك القبضة التي أشعر بها بين الحين والآخر في قلبي؛ القبضة التي تكون ثقيلةً جدًّا وثِقلها يُثقِلني، فكل هذا بجسدٍ واحد وهو أمرٌ بائس، لم يعد إليَّ سواه، كنت أفكر في كل ليلة يحِّل عليَّ الظلام فيها وأنا لست بمَأمن من القنابل والبراميل المتفجرة، كانت حياتي بائسة، أقصى أحلامي أن ينتهي الليل ويحل الصباح، أن أستطيعَ

النوم لساعة متواصلة، كنت أحلُم كل ليلة أنِّي أرى أمي وأخي، وكيف سيكون استقبالي وكيف ستكون مشاعري وقتها؟ بدأتُ أفكر في كلام (باسل)، نظرتُ من حولي وأدركت أن كلامه هو ما يجب أن يكون. كنت أعلم أنه لا وطن غير وطني، كنت أرى أوضاعَ اللاجئين في البُلدان الأخرى من خلال شاشات التلفاز؛ كيف يعيشون في خيام في العراء، وكيف يعيشون على المُساعدات التي تأتيهم من خلال مُنظمات الإغاثة، وأن النساء أحيانًا تُستَغل جنسيًّا مُقابل الحصول على الغذاء، كيف أنهم مكروهون مِن قِبَل شعوب تلك الدول والمجتمعات ترفضُ فكرة تقبُّلهم؛ فيلجؤون إلى خيامهم. بالطبع لا أريد كل هذا أن يحدث معي، ولكنَّ خيارين إحداهما أمر؛ خيار الحرب والدمار ومن ثَمَّ الموت، وخيار العيش كلاجئةٍ في مُخيمات تُظهِر أكثر ما تستر. لم أكن أعلم ماذا يُخبِّئ لي القدر، ولكنِّي خبَّأت له حسن الظن بالله.

مرَّت ساعات وقَرُبَ المساء يحلُّ عليَّ، وقفتُ موضعي وبدأت أنظر إلى ما تبقَّى من بيتنا، بدأت أتأمل كل ركن فيه، ثم نظرتُ إلى الجدار الوحيد المُتبقي الذي كان يحميني في تلك الفترة، التقفتُ طبشورًا صغيرًا ونظرت إلى ذلك الجدار الإسمنتي القوي العتيق، وتركت أثري عليه بكتابتي (كنت هنا ولسوف أعود، (نُوچين)). لم

أَلَملِم شيئًا من بيتنا فلم يعد هناك شيء من الأساس، لملَمتُ فقط بقايا ذكرياتي المُبعثرة على بقايا البيت، رتَّبتُها في عقلي وحزمت أحزاني في قلبي، وهممتُ بالذهاب. أَمسكت بخُطواتي أناملُ الحنين أنه لا زال هناك بعض منِّي يُريد البقاء، ولكن تَسارعَت خُطواتي نحو منزل (باسل) عند سماعي أصوات القنابل، فلم يعدُ هناك إلا الذهاب معهم. أدركتُ باب بيتهم فطرقتُه، التقفني حضن زوجته برفقٍ كنتُ قد نسيتُ طعمه، ثم أَجلَستني على أحد كراسيِّ البيت الذي كان مُضاءً ببعض الشموع، وقالت لي:

- حمدًا لله على سلامتكِ ومُوافقتكِ بالذهاب معنا.

نظرت إليها بابتسامةٍ مكسورة فقالت:

- لا تخجلي يا (نُوچين)، فنحنُ أصبحنا إخوة من الآن.

نظرت إليَّ بابتسامةٍ حنون ثم ربتت على كتفي ودَلفت إلى إحدى غرف البيت، كنتُ مرتبكةً إلى حدٍ ما. أَحضَرت إليَّ بعض الملابس ثم مدَّت يدها إليَّ وأعطتني إياها، التفتُ يمينًا ويسارًا لأبحث عن (باسل) فلم أجده، وقالت لي زوجته:

- لقد كتب الله لنا عمرًا جديدًا، فلقد وَقعت قذيفة على البيت المجاور لنا جَعلته مساويًا للأرض، وأحدَثت هذه

الأضرار التي تَرينَها.

أشارت إلى بعض الشروخِ الموجودة في جدران البيت وأشارت إلى قطعةٍ من القماش مُتدليَّة من السقف؛ فلقد كان ا لبيت ع بارة ع ن م ربعٍ ي نقصه ض لع، ه ذا ا لضلع الناقص يُمثِّل جدارًا دُمِّر جراء القصف وقاموا بتغطيته بقطعةٍ من القماش الذي يُستخدم في نَصبِ الخيمة؛ حتى لا يكونوا مكشوفين. سمعتُ صوت طَرقٍ غريب على الباب؛ فقد كانت ثلاث طَرَقات متقطعة، نظرتُ إليها وإلى الباب بخوف، فقالت:

- لا تخافي، إنه (باسل".

دلف (باسل) إلى البيت وقام بالترحيب بي ثم قال:

- لقد تأخرتُ بسبب الاتفاق مع المهربين على طريقة السفر.

فقُلتُ له:

- مُهربين! لِمَ هذا؟ من السهل الذهاب إلى اي من البُلدان القريبة منا.

- السفرُ إلى هذه البُلدان سهلٌ حقًّا، ولكن الإقامة هناك صعبة؛ فهناك السوريُّون الذين يعيشون تحت اسم لاجئٍ ويعيشون في مُخيمات.

- وما الجديد؟ فكل البلاد تُعاملنا كلاجئين!

- لا، هناك بلد لا تُعامل السوريين كلاجئين.

- ومن تكون هذه البلد؟

- مصر.

نظرتُ إليه في تعجب وقُلتُ له:

- وما الصعوبة في السفر إلى مصر يا (باسل)؟

- تكمُن الصعوبة في التأشيرة التي تطلبها السلطات المصرية للدخول إلى أراضيها، وكذلك الاستعلام الأمني الذي يُجرَى لنا وهو يستغرق وقتًا طويلًا قد يمتدُ إلى شهور، بالإضافة إلى المبلغِ الذي سوف نُنفقه حتى يمكننا الحصول على التأشيرة؛ ذلك المبلغ الذي قد يتجاوز الأربعة آلاف دولار للفرد الواحد.

قالت زوجته:

- يا ألله! ولِمَ كل هذا؟ لقد كان الأمر أسهل بكثيرٍ عند بَدء الثورة جيراننا دخول من قبل بدون تأشيرة.

- نعم، ولكن الآن المشهد السياسي في مصر قد اختلف بعد سقوطِ الرئيس محمد مرسي؛ ففي فترة ولايته كان الدخول للسوريين بدون تأشيرة ولكن بعد سقوطه استغل بعض الأشخاص من داعش هذه الميزة للدخول إلى مصر عن طريق سوريا للقيام بأعمال إرهابية فيها، فما كان من الحكومة المصرية إلا أن تضيق الخناق عليهم

بإلغاء القرار السابق وإجراء استعلام أمني عن كل من يدخل أراضيها من سوريا، وهذا الإجراء يأخذ وقتًا طويلًا.

قُلتُ له:

- وكم سُتكلِف الرحلة إلى مصر يا (باسل)؟

- لن تزيد عن أربعمائة وخمسين دولار بِدءًا من خروجنا من درعا.

قالت زوجته:

- وكيف سيكون مسار الرحلة؟

- سوف نذهب من درعا إلى دمشق، ومن دمشق إلى الخرطوم، ومن ثم إلى منطقة بورت سودان الحدودية ومنها إلى مصر حيثُ محافظة أسوان.

- وهل سيتحمَّل طفلنا كل هذا يا (باسل)؟

- لا تقلقي، فالمهربون طَمأنوني وأخبروني بأنهم سيُوفِّرون الحماية للنساء والأطفال.

- لا أما ن مع مهربين يا (با سل)، فهُم يُتا جرون بأحلام البشر.

قالتها ثم أَجهشت في البكاء؛ فذهبت إليها لأُهدِّئ من روعها وكذا (باسل) الذي جلس بجانبها وأخذ يمسح على ظهرها لتهدئتِها وقال لها بعض الكلمات التي طَمأنتها

قليلًا، نظرتُ إليه وأخرجت من الحقيبة الصغيرة التي كانت بحَوزتي قرطًا كان هدية من أمي وأعطيته له؛ فنظر لي في غضبٍ وقال:

- ما تفعلينه يُمثِّل إهانةً لي، ضعي قرطك كما كان، فأنتِ مثل أختي ولقد دفعت مسبقًا تكاليف الرحلة لثلاثتِنا.

ألححتُ عليه، ولكنه رفض وكذلك زوجته التي نَهرتني وقالت:

- عند دخولكِ البيت، قُلتُ لكِ إنكِ أختي وباسل أخاكِ، وهذا ما يتوجب على الأخوة أن يفعلوه مع بعضهم البعض.

نَظرت زوجته إليه وقالت:

- ما الخُطوة القادمة الآن؟

- لقد أنهيتُ كافةَ الإجراءات الخاصة باستخراج جوازات السفر الخاصَّة بنا، يتبقى لسفرنا فقط أنتِ يا (نُوچين)، وعند استخراج جوازِ سفرك سوف نبدأ رحلتنا للهروب من جحيم الحرب.

- توكلنا على الله.

أَدخلت الحرب والصدفة (باسل) وزوجتَه إلى حياتي؛ فلم يكُن لي أصدقاء سوى زملاءِ الدراسة، لم يكن لي إخوة سوى (سيدرا) و (عمار). والآن أصبحوا هم أصدقائي

وإخوتي الذين لم تلِدهم أمي. مرَّت الأيام تِباعًا حتى استخرج (باسل) جواز السفر الخاص بي، كان يومًا سعيدًا لنا، وخلال تلك الفترة كانول نِعمَ الإخوة؛ يُؤنسِون وجودي في تلك الحياة المليئة بالخراب، كلُّ يوم كنت أنظر من نافذة صغيرة في البيت على بيتنا المهدم، أتذكر الأيام الجميلة التي تُعطيني أملًا في أن أرى أمي و (عمار) مرةً أخرى، كلُّ يوم كنت أذهب فيه إلى النافذة كان يَحدوني الامل في أن أنظر فأجِدهم داخل البيت، لكن لم يأتِ هذا اليوم بعد. بعدَ مرور عدة أيام؛ حَزَّمنا حقائبنا وألقينا نظرةً أخيرة على ما تبقَّى من بيوتنا؛ نظرة وداعٍ مليئة بالحزن، وذهِبنا إلى دمشق التي لم نجلس بها أكثرَ من سويعاتٍ قليلة داخل مطارها الدولي. قد حان ميعادُ رحلتنا إلى السودان عندما سمِعنا التنويه عنها من خلال الإذاعة الداخلية للمطار، خَطيتُ بخُطى مُتثاقلة نحو بوابة العبور ثم الى الأُتوبيس الخاص بنقلِنا إلى الطائرة. دلفتُ إلى سُلَّم الطائرة على مَضضٍ حتى وصلتُ إلى الكرسي المُخصصِ لي وكان بجانب النافذة، كانت أول مرة أركب فيه طائرةً، بدأ الطيَّارُ بالحديث عن الإرشادات الخاصة بوسائل الأمان على متن الطائرة، وأخذ يتحرك بنا حتى عَلَت الطائرة فَأَظهَرت (دمشق) كبقعةٍ صغيرة على سطحِ الكرة الأرضية، وكلما عَلَت صَغُرَ حجم (دمشق) وحجم العالم، كنت أنظر من نافذتي وأتساءل

هل يستحق هذا العالم كل هذا التشاحن والحقد والكراهية على حُطامه؟ إن العالم أتفه بكثيرٍ عند النظرِ إليه من السماء. كنتُ أنظر مِن نافذة الطائرة وأُحلق في السماء أُودِع ذكرياتي وأحاول تكوين ذكريات جديدة، وعند خروجي عَنوة من بلادي تمنيتُ ألَّا أخرج منها وأن تكون ذكرياتي هي الجذور التي تُثبِّتني بها، كنت أتأمل تلك الغيوم التي أطيرُ فوقها وفي مُخيلتي كوكبٌ يسير بأفاق الفضاء، أتمنى لو ترتفعُ تلك الطائرة كي نضيعَ بالفضاء فأرى تلك النجوم التي حَجبتها البراميل المتفجرة والصواريخ والقنابل وأنظرُ إلى الأجرام السماوية وكيف تَسبحُ في السُديم، أريد رؤيةَ الكواكب من حولي فأرى ألوانها. نظرتُ إلى (سوريا) نظرةً أخيرة حينما قال الطيَّارُ إننا أوشكنا على الخروج من الحدود السورية، نظرة وداع وإلى لقاء آخر كلمة لفظتُها وأنا أنظر من شباك الطائرة وكأنَّ قُربي من السماء عجَّل باستجابة ما خرج من فمي في لحظة تسلَّطت فيها مشاعري على لساني، وها أنا الآن أكاد أُحرَم من لقاءٍ آخر.

وفي صباح يوم الثلاثين من أغسطس لعام ٢٠١٤؛ وصلنا إلى مطار (الخرطوم)، أوَّل من استقبلني عند خروجي من باب الطائرة هو الهواء الحار الذي لَطَمني بمجرد خروجي من باب الطائرة حتى أصبح وجهي مُحمرًا كثمرة

الطماطم، وما إن وصلنا إلى بوابات الخروج حتى استقبلتنا (أمُّ معاذ) وهي الرأس الأكبر للمهربين في السودان، كانت اِمرأةً في أوائل الخمسينيات من العمر، سوداء البشرة ممتلئة وقصيرة بعض الشيء، كانت ترتدي ثوبًا بُنِّيًا مُشجرًا، معها شاب عشرينيّ طويل القامة أسود البشرة، مدَّت يدها للسلامِ وقالت:

- أهلًا وسهلًا بكم في الخرطوم.

رددنا ثلاثتُنا السلام بابتسامةٍ مصطنعة وقال لها (باسل):

- أهلًا بكِ يا (أمَّ معاذ). ما هي وجهتنا القادمة؟

- الآن سوف يقِّلكم (مدثر) إلى فندق الإقامة لتنتَظروني فيه لحين الانتهاء من ختمِ جوازاتكم بختم الأجانب.

مدَّت يدها إلى (باسل) ثم نظرت إليه، فأخرجَ جوازات السفر وأعطاها إيَّاها، قلَّبت صفحاتهم ثم لوَّحت بهم وقالت:

- أين النقود؟

فردَّ عليها (باسل):

- حسنًا، كان اتفاقكِ مع من تحدثت معه عبر الهاتف بأ نكِ سوف تحصلين على نصف المبلغ عند وُصولنا والباقي عند ذِهابنا إلى (بورت سودان).

- نعم.

أخرجَ (باسل) النقود وأعطاها إيَّاها، بعد ذلك أخذنا ذلك الشاب المدعو (مدثر) إلى فندق الإقامة. لم يمر وقتٌ طويل حتى وصلنا إلى ذلك الفندق الأشبه بالبيت السكني المكوَّن من ثلاثة طوابق فقط على غِرار البيوت التي كنا نسكن بها في (سوريا)، ولكن (مدثر) و (أم معاذ) أطلقوا عليه فندقًا! حزمت حقائبنا وصعدنا إلى غرفة في الطابق الثاني؛ مكوَّنة من أثاثٍ مُتهالك وسريرين حديديّين غلبَ عليهما الصدأ، وفَرش مُتسخ وحشرات في كل ركن من أركانها. اضطررنا إلى المُكوث بها حتى المساء، وفي المساء جاءت إلينا (أم معاذ) ومعها جوازات السفر مختومة بختم الأجانب، وقالت لنا:

- في الصباح سوف يأتي إليكم (مدثر) ليقلَّكم إلى بورت سودان ومن ثم نذهب إلى (أسوان).

- هذا لم يكن اتفاقنا يا (أم معاذ)!

- عندما كنتُ في (سوريا) كان هنالك اتفاقٌ، ولكن عندما وصلت الى (السودان) فالاتِّفاق تغير وفقًا لطبيعة الحياة هنا؛ فذهابُكم إلى (بورت سودان) ليلًا من الخرطوم يُشكِّل خطرًا عليكَ أنت وأسرتكَ، فالتزم التعليمات.

ذَهبت نحو الباب وفتحَته ونظرت إلى ثلاثتنا ثم قالت:

- (مدثر) سوف يأتي إليكم في الثامنة صَباح الغد، فكونوا على الموعد!

أَغلَقت الباب بشدة. أجهشت زوجة (باسل) في البكاء وقالت وهي مُمسكةٌ برضيعِها والدموع تنهمر منها بغزارةٍ:

- ألم أَقُل لكَ يا (باسل) أنه لا أمان للمهربين!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السادس
رِحلَةُ المَوتِ

(فلقد تعلقتُ بمَن تصطحب الموت معها أينما ذهبت)

بورت سودان صَباح يوم الرحلة.

في الصباح؛ جاء إلينا (مدثر)، واصطحبَنا إلى مُحافظة بورت سودان الحدودية، ركبنا حافلةً صغيرة برِفقة عدد من الركاب المهاجرين أيضًا، وأَمَرَنا (مدثر) ألَّا نفتح الستائر عند مرورنا على نقاط التفتيش -التي كانت ثلاثًا- حتى لا ينكشف أمرنا، وعند وصولنا قال لنا إننا سوف ننتظر داخل أحد المنازل حتى قدوم الحافلة التي ستقِلُّنا إلى أسوان. بمجردِ وصولنا إلى باب المنزل بدأ في طَرق الباب، لم نكن نعلم بأن هناك أحدًا في المنزل فقد كنا نعتقد بأننا سننتظرُ بمفردنا داخل المنزل لحين وصول الحافلة، وبعدما طرق الباب فتح لنا شابٌّ أبيض البشرة ذو شعرٍ أشقر! عند هذه اللحظة بدأت الشكوك تُساورني حتى فتح باب المنزل على مصراعيه وكشف عمَّن بداخل المنزل؛ كان المكان كئيبًا ومكتظًّا بالناس، مليئًا بالسوريين؛ السوريين الذين هُم على شاكلتِنا، نساء وأطفال ورجال، الطويل والقصير، النحيف والسمين. دخلنا بروِيّةٍ ونحن ننظر إلى بعضنا البعض في خوف

وحيرة، كان المكان صامتًا لدرجةِ أننا كنا نسمع دقات عقارب الساعة الموجودة في المنزل، وكنت اسمع نبضات قلب زوجة (باسل) من كثرة الخوف، لم أفعل شيئًا سوى التحديق في الرضيع الذي على كتفها، كنت مشو شة التفكير، إحسا سٌ غر يب يُراودني، لا أع لم ما الذي يحدث وفي أي ورطة وُضِعنا؟ ذهبنا إلى ركن فارغ من أركان المنزل وجلسنا على الأرض ممسكين بأيدِي بعضنا البعض ، بدأ ت أتأمل وجو ه مَن يجلِسون ؛ فهذا طفلٌ يبتسم لا يُبالي ظنًّا منه أنه قد هرب من ويلا ت الحرب، وذاك الشاب شارد يحلم بمستقبل أفضل وبارقة الأمل الوحيدة قد تكون موته على يد مهربين او قُطَّاع طرق أو عَطشًا في الصحراء، وهذه الفتاة كحالِ معظم فتيات سوريا؛ إما قُتِل حبيبها أو زوجها أو أباها فأصبَحت وحيدة فاضطرت للهروبِ بعدما أصبحت الحياة شبه مستحيلة وهي بمفردها، وأثناء كل هذا وذاك كنتُ أجلس وحدي رغم وجود (باسل) وزوجته وكل مَن في ذلك المنزل الكئيب، ما زال بداخلي ما لم أستطِع معرفته فأنا م ا زل ت غير قادر ة علي وصفِ ذلك ال شعو ر، لم تَعُد الحياة اسمًا على مُسمَّى، وأصبح اليوم يُخبِّئ لي الخوف والألم أو الموت؛ فبيني وبين نفسي أصبحتُ أتشاءَم من نفسي، لم أكُن أعلم متى سيحينُ الفرج وتعود الحياة كما كانت وليست الحياة المُتلبسة في الممات والخيبات التي

أعيشها. لم تمر سوى ساعات حتى أتى (مدثر) -ذلك الشاب السوداني- وقال:

- هيَّا بنا، لقد حان وقت الذهاب، الرجال تأتي في صفٍ والنساء مع الأطفال في صفٍ آخر.

قالها بصوت جهوري مرتفع.

خرج كل شخصٍ منَّا إلى الحافلة، ولكنها لم تكن حافلةً بالمعنى المُتعارَف عليه؛ فلقد كانت سيارة قديمة مثل السيارات الصغيرة التي يُنقل فيها الغنم! وعندما رأينا هذا عمَّت الضجة في المكان وزاد من الغضب بكاءُ الأطفال، فكيف سنركبُ جميعنا في صندوق تلك السيارة من الخلف مثل الغنم ونحن نزيد عن الخمسةِ عشر فردًا دون الاطفال! ولكن بعد لحظاتٍ من التناحر والتشابك بالأيدي مع الأربعة مُهربين الذين كانوا موجودين؛ شَهَّرَ واحدٌ منهم مسدسًا في وجه أحد الرجال السوريين وقام بتهديده بالقتل وقال:

- هذه هي وسيلة نقلكم إلى أسوان، فإن أردتُم الذهاب اركبوا واتبَّعوا التعليمات، وإن لم تريدوا فاغربوا عن وجهي قبل أن أَقتلكم كالبهائم واحدًا تلو الآخر، ولن يسألَ فيكم أحدٌ إلا تجَّار الأعضاء البشرية.

قالها غاضبًا.

لم نستطِع التفوُّه بشفا حرف، أصبحنا جميعًا مغلوبًا على أمرنا لا نملك سوى الدعاء ونرجو من الله أن نَعبُر إلى أسوان في أقرب وقت، امتَثلنا إلى أوامرهم فبدأوا بوضعِ الحقائب أولًا في صندوق السيارة، صعد الشباب وجلسوا على أركان الصندوق و وضعوا أقدامهم خارجه، جلسنا نحن النساء والأطفال في المنتصف وكنَّا أربع نساء وثلاثة أطفال، أغلقوا الصندوق وجلس اثنان منهم على مؤخرةِ السيارة واثنان آخران جلسا في المقعدين في مقدمة السيارة، تحرَّكت السيارة نحو القسم السوداني من الصحراء، ثم انطلقت السيارة مُسرعةً تشق طريقها نحو الصحراء، كانت الساعة تشير إلى الثانية عشر ظهر اليوم الأول من شهر سبتمبر، ٢٠١٤. بعد ساعَتين من التحرك والتوغُّل في صحراء قاحلة بسرعةٍ رهيبة جنونية، توقفت السيارة فجأة، ونزل منها أحد المهربين وأخرج هاتفه وبدأ في التحدث بلغةٍ غير مفهومة، وكان الآخر الذي معنا في الصندوق يتعاطى المخدرات ويأكلني بنظراته الشهوانية، وبعد دقائق نزل السائق من السيارة وقال:

- سوف ننتظر هنا لفترة من الوقت لحين الحصول على خطِّ سير الرحلة الجديد وذلك لوجود الأمن في نفس خط السير الذي كنا سوف نسلكه.

قال هذا لطمأنتِنا فقط؛ حتى لا نُحدِث جلبة، ولكن الحقيقة أننا قد تُهنا في الصحراء، انتظرنا أكثر من خمسِ ساعات حتى جلسنا نتحسس ما تبقى معنا من طعام وشراب بعد نهار أحرقت فيه أشعة الشمس وجوهنا وأنهكت أجسادنا التي حُشِرت داخل صندوق سيارة حديدية كانت تشق الصحراء والدروب الوعرة لساعاتٍ طويلة خلال تلك الرحلة، وعندما قَرُب غروب الشمس حاولتُ التعافي من آثارها، لكن شُحّ المياه ونفاذ الطعام وصراخ الأطفال الرضَّع وتهديدات المهربين لم تسمح لنا بذلك، وعند حلول المساء أَمَرنا المهربون بالصعود إلى السيارة مرة أخرى وبدأوا في التحرك نحو الدروبِ الجبلية بسرعة هائلة؛ ممَّا تسبب في تشابُك عظام المهاجرين أثناء ارتطام عجلات السيارة بالصخور والحفر، فلقد كانت السيارة ترتفعُ وتهبط مرة واحدة نتيجة لتلك السرعة واحتكاكها بالصخور التي كانت في تلك الدروب.

بدأت إحدى النساء بعَقدِ حبل حولها وحول طفليها حتى لا يسقطوا من فرطِ السرعة والطرق المتعرجة داخل الصحراء الغادرة، وأثناء هذه السرعة الجنونية كنا نسمع أصواتًا مخيفة في الصحراء، كنَّا نسمع طلقات أعيرة نارية حولنا، وكنا نرى عصابات التهريب الأخرى وهي تنقل المهاجرين مثلنا، أصبح المهربون عدائيين أكثر مع انتشائِهم المخدرات، كانت الرحلة تُحتِّم علينا التعامل

مع المهربين واللصوص وقطاع الطرق، كنت أضع يدي على قلبي لأُطمئِن نفسي؛ فلقد كان قلبي يرتعد خوفًا، كنتُ سأموت من الرعب حقًّا، كانوا يسيرون بسرعة هائلة لا يُعيرون اهتمامًا أن من ينقلهُم بشرٌ ومن ضمنهم نساء ورُضَّع!

زادت السرعة أكثر فأكثر عند انتشائهم المخدرات، فوقفت زوجة (باسل) وهي تحمل رضيعها مُمسكة بـ (باسل) الذي كان ظهره إلينا وقدمه للخارج مواجهةً للصحراء، كانت تقول بصوتٍ منخفض: لا أستطيع التنفس، (لا أستطيع التنفس!) قالتها وهي تخبِّطُ على كتفه كي يسمعها، نظر إليها ووضع يده على يدها، ثم نظرت إليَّ وقالتها مرة أخرى بصوت يكاد يُسمَع: (لا أستطيع التنفس ، لا أستطيع التنفس!) كنت بالكاد أسمعها؛ نتيجة صوت محرك السيارة وصراخ الأطفال وصوت الهواء والأصوات المُخيفة المنبعثة من الصحراء، عَلا صوتُ المهرب الذي نَهرَها وأمرها بالجلوس وألَّا تقف لأن المنطقة وعرة ومليئة بالصخور ومن الممكن أن تقعَ، ولكن لم تستمع له، ومع السرعة ارتطمت السيارة بصخرةٍ فارتفعت نحو متر تقريبًا وارتفعت معها زوجة (باسل)؛ وما إن هبطت السيارة حتى وجدنا زوجة (باسل) مع رضيعها جثثًا هامدة خلفنا

في الصحراء غارقين في دمائهم؛ فمع سرعة السيارة وقعت على رقبتِها وهي ممسكة برضيعها الذي لقى حتفه معها؛ تحركت من سوريا يغدوها الأمل في مستقبل أفضل لرضيعها، نظر (باسل) إليها في حسرةٍ وما لبث أن قفز من السيارة في محاولةٍ يائسةٍ منه للُّحاق بهم ومحاولة إنقاذهم، لم يمر الوقت حتى سمعنا صراخه، فكم هي قاسية نظرة الحسرة والفقد المرير! كان من أصعب المواقف التي مرَّت عليَّ، فأنا أكثر الأشخاص عِلمًا بألم الفقد، لم يكن وقتًا طويلًا ولم أُدرِك كم مضى منه لكنه لم ينتهِ، وبهدوء تام اصطحبها إلى هاوية الموت، لم أستطِع أن أنسى نظرتها إليَّ وهي ممسكةٌ بي ولكن خاب أملها؛ فلقد تعلقتُ بمَن تصطحب الموت معها أينما ذهبت، ولكن الموت يرفض أن يصحبني، يرفض أن أرافقه، في كل مرة نلتقي كنت أسأله عن موعدي! ولكنه تَجَاهلني كأنه لا يعلم ويحصد أرواح من هم بقُربِي. عند سقوطها أَسرعَ المهربون أكثر ولكن بعد إلحاح وتشابك معهم اضطروا الى الانصياع لمطلبِنا وأَوقَفوا السيارة وقمنا بدفنها في الصحراء والصلاة عليها.

بعد رحلة دامت لأكثر من ثماني عشرة ساعة ذُقتُ فيها أشد أنواع الإرهاق النفسي والجسدي والذهني، رأيتُ فيها الموت يتشكل في أكثر من صورة؛ قَرُبنا من الوصول

إلى مدينة حلايب المصرية وهي أقرب نقطة مصرية إلى مدينة أسوان. غرقت السيارة في الرمال وفي كل مرة كان المهربون يأمرون الرجال بالنزول من السيارة لدفعِها وإخراجها من الرمال. وعلى مقرُبة من مدينة حلايب قام المهربون السودانيون بإنزالنا من السيارة عند نقطة محددة، وَجدنا مجموعة من المهربين المصريين على أحد الجبال، كان أحدهم شابًّا صغيرًا لا يتعدى التسعة عشر عامًا والآخرين قاموا بإنزالنا وتسليمنا لهم ودفعوا لهم المقابل المادي للتهريب، سِرنا على أقدامنا في الصحراء لمدة ست ساعات حتى نفذ الماء، ثم نقلونا إلى سيارة أخرى وبدأنا في التحرك نحو أسوان حتى وصلنا إلى مشارف المدينة، وقبل وصولنا إلى هناك داهَمتنا قوات حرس الحدود، وحاولت الإمساك بنَّا لكن سائق سيارتنا فرَّ بسرعة عبر التفافه حول الطرق الرئيسية قبل وصول سيارتنا إلى مدينة أسوان، كان الاتفاق هو ذِهابنا مباشرةً إلى محطة القطار كي نصلَ إلى محافظة القاهرة ومن ثم الانضمام إلى جمعية السوريين المغتربين الموجودة بمدينة السادس من أكتوبر، وسوف تتولَّى الجمعية أمر التسكين وتوفير فرص العمل. حينها وصلنا إلى أسوان في وقت متأخرٍ من الليل، نزلنا من السيارة التي كانت تقلُّنا، أمرَنا المهربِ المصري بالذهاب سيرًا على الأقدام لمحطةِ

قطار أسوان التي تبعُد مقدار عشر دقائق إذا سِرْنا، وقال لنا:

- أهلًا بكم في أسوان، الآن قد وصلتم إلى برِّ الأمان، من يريد الذهاب إلى القاهرة فليذهب إلى محطة القطارِ، بعد ساعتين من الآن سيحينُ ميعاد أُولى القطارات المُتَّجهة من أ سوان إلى القا هرة، وعند وصو لكم ؛ لا تدخل وا مجموعاتٍ في نفس الوقت بل في توقيتات زمنية مختلفة حتى لا يشك أفراد الشرطة المنتشرين داخل المحطة عند التفتيش، ومن يريد منكم المُكوث في أسوان فلا داعٍ للقلق؛ فإن أهلها أُناسٌ طيبون وأهل كرم، صاحبتكم السلامة.

أشار إلينا بالذهاب، مشينا قليلًا حتى ظهرت لنا من بعيد لافتةٌ مكتو ب عليها ا بخ ط مُذهَّب : (محط ة قطار أسوان)، كانت هذه اللافتة أولَ الغيث لنا، احتضنَّا بعضنا البعض وفرحنا جميعًا إلا (باسل)؛ فهو لا يزال مكلومًا حزنًا على موت زوجته ورضيعه. بعد دقيقةٍ واحدة؛ وصلنا إلى منفذ الدخول للمحطة، كانت المحطة مليئة بالعساكر والضباط المُدججين بالأسلحة كما قال المهرب، دخل مُعظم من كان في الرحلة في توقيتاتٍ مختلفة وَفقًا لتعليما ت المهرب ، حتى حا ن دوري أنا و

(باسل) الذي كان شاردًا طيلة الرحلة، كنت أحاول أن أواسيه وأُخفف عنه منذ موت زوجته ورضيعه، اقتربنا رويدًا رويدًا من منفذِ الدخول، كان أمامنا أحد الرجال الذين كانوا معنا في الرحلة، اقترب من المنفذ ثم استوقفه ضابط الشرطة للتفتيش:

- قِف مكانك يا هذا!

وقف الرجل ووقِفنا نحن مِن خلفه، كنتُ أرتعد خوفًا، و لم يُلقِ (باسل) بالًا لما يحدث.

- أعطنِي جواز سفرك!

أخرج الرجل مترددًا جواز السفر للضابط، ثم أخذ الضابط يُقلِّب في صفحات الجواز وهو ينظر إليه بتمعنٍ شديد، و قال له:

- أعلم أنك دخلت بطريقةٍ غير شرعية، ولكن أهلًا بك في بلدك الثاني مصر.

ابتسم له وأشار إليه بالذهاب وهو يبتسم، حينها شعرتُ بأن الحياةَ سوف تضحك إليَّ أخيرًا وسأصبِحُ فعلًا في بلدي الثاني، بعدها حان دوري أنا و (باسل) في التفتيش للدخول، دخل (باسل) فاستوقَفه الضابط، ثم ناداه أحد الضباط الآخرين الموجودين في المحطة بسبب نُشوب

مشاجرة عند شباك حجز التذاكر، فأشارَ إلى أحد أفراد الأمن المُتواجِد عند منفذ التفتيش لاستكمال إجراءات التفتيش:

- يا أمين مُحمد، قم لاستكمال إجراءات التفتيش لحين انتهاء تلك المشاجرة.

فاستقام ذلك الأمين الذي كان متوسطَ الطول ذا شاربٍ طويل وممتلئ بعض الشيء، فوقف أمام (باسل) وقام بشدِّ ياقة قيمصه إلى الأمام وقال:

- أخرِج جواز سفرك أيها الحُثالة، لقد امتلأت البلاد بكم.

نظر إليه (باسل) في غضبٍ شديد وقال:

- نحنُ لسنا بحثالةٍ؛ فنحن أسياد قوم لولا الحرب، أما الحثالة فهو من يتلقَّى الأوامر من أسياده.

- أَتُهينُنِي وأنت على أرضي؟!

اشتبك ذلك الأمين مع (باسل)؛ ولَطَمه على خده، فضرب معظم أفراد الأمن المتواجدين عند المنفذ (باسل) ضربًا شديدًا حتى أصبح وجهه مُلطَّخًا الدماء، وقال لي:

- اهرُبِي، اهرُبِي يا (نُوچين)، اهرُبِي!

وما كان لي حينها سوى الركضِ خارج المحطة وأنا أبكي بشدَّة؛ لأنَّ حجم القهر الذي سكن بداخلي أكبر من أن

أتحمله، أبكي لِأنه من كثرةِ آلامي أصبحت أجهل كيف باستطاعة المرء أن يفرَّ من ألمه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل السابع
الفَرِيسَة

(كم أ نا ساذج ة! أ ثق في أَي شخ ص! مُتفائ لة إ لى حد البلاهة! لأنني أُؤمن بقشة الغريق فلا أُفلتها أبدًا من يدي(

إحدى حدائق مدينة أسوان، ليلة رأس السنة، ٢٠١٤.

مرَّت ثلاثة أشهر منذ هروبي من عناصر الشرطة، ومُنذ ذلك الوقت وأنا أقبعُ في حديقة السلام المتواجدة قُرب محطة القطا ر. في تلك ا لفترة كانت ا لأيام تُشبِه بعضها البعض، أصحو على مرارةٍ وأبيتُ على حسرة، كنتُ أجلس كل يوم وأسأل نفسي سؤالًا واحدًا، كيف لفتاة ا قتربت من أن تَتِمُّ عامها الثامن عشر أن تكون في منفى؟ ثمانية عشر عامًا؛ فجر الحياة وصُباحها المشرق، قوة القلب الذي لم يعد يحلم بالثمار، حب ذلك السن مثل بقية ا لفتيات، حضن الأسرة الذي لم يعد موجودًا وقُبلات الأخوات التي اندثرت، لن أرى سماء سوريا ثانيةً! أصبحت بلا حرية ولا أشقاء ولا أسرة ولا أصدقاء، ولا ح تى حبيب، الحقوق مقيَّدة والكرا مة في الترا ب، يا للأسى!

عندما هربتُ من رجال الشرطة، التقَفَتني سيدةٌ تحمل الجنسية السودانية؛ تُسمَّى (حنين)، سوداء البشرة،

قامتها متوسطة، سمينة تشعر بقدومها عندما تنظر إلى العشب وهو يرتعد مَخافةَ أن تدهسه بقد ميها، وجهها مستدير، لها عينان بُنِّيتان، شعرها خشن، خلال الثلاثة أشهر لم ترتدِ سوى رداءً وإذا لم تُغيِّره كان ثوبًا من الصوف الأزرق المزركش. كانت تعمل داخل الحديقة أو بمعنى أدق كانت المسؤولة عن دورة مياه السيدات بالحديقة، كانت دورة المياه في مُقدمة الحديقة، وكان يساعدها في ذلك ابنها (الطيب)؛ هذه ليست صِفته بل اسمه، كان ذا خمسةِ عشر عامًا، ولكن سنوات عمره كانت تبدو ثلاثين! كان قويَّ البنية أسود البشرة يحمل ملامح أمه وبدانة جسمها. احتَضَنتني تلك المرأة وسَعت جاهدةً إلى توفير ملبس ومأوى لي، كانت تحميني دائمًا من أعين رجال الشرطة المتواجدين بميدان المحطة بالاختباء في دورة المياه المتواجدة في الحديقة، فأنا لا زلتُ بدون إقامة في مصر. ثلاثة أشهر أُساعد فيها السيدة (حنين) في عملها بالحديقة وتقوم هي بحمايتي وتوفير مُتطلبات المعيشة، كنت أراها دائمًا تتحدثُ وتجتمع مع العديد من الفتيات السودانيَّات والمصريات، تأخذ منهم وتعطيهم نقودًا، كنت أعتقد بأنها تقوم بتجارةٍ ما معهم، وتجلس هي وابنها مع شبابٍ بين الحين والآخر، كنت أعتقد أيضًا أنهم يعملون معها، ولكن هؤلاء الشباب لم يكونوا مألوفين مثل الفتيات؛ فالفتياتُ كنت أَراهُنَّ كلِ

يوم تقريبًا، أما الشباب؛ فالذي أراه اليوم من الممكن ألّا أراه إلا بعد أسبوع او أسبوعين. في الغالب كنتُ مع نفسي ولا أتحدث معها فيما لا يخصني. عندما تأتي الساعة الثانية عشر فإنها تُنادي عليَّ كي تأخذ هي الدوريَّة المسائية وتشير إليَّ بالذهاب إلى خيمة كانت قد نَصبتها ناحية ألعاب الاطفال آخر الحديقة كي أنام. وفي يوم رأس السنة الميلادية لعام ٢٠١٤؛ تَرَكتني بمفردي أقف على أبواب دورة المياه وذَهبت هي لإحضار بعض الأغراض للاحتفال معًا بهذا اليوم، فالأجواء في مدينة أسوان كانت

لا تو صف؛ الأط فال يلع بون وينفخُون في المزامير فيُحدِثون ضجيجًا، والشباب يَلهون بالألعاب النارية التي تُزيِّنُ السماء، رأيتُ السعادة في وجه كل فتاة تقف مع حبيبها، تلك السعادة التي كنت أتمناها يومًا ما، وأثناء ذلك الصخب إذا بشابٍّ أسمر البشرة طويل القامة، يرتدي سترة جلد سوداء، يُدخِّن السيجارة، يأتي إليَّ من بعيد حتى دنا مني وقال:

- كيف حالك يا جميلة؟ هل أنتِ جديدة هنا؟ فأنا لم أرَكِ من قبل.

نظرت له في خوفٍ مستتِر وقلت:

- نعم جديدة، هل تبحثُ عن إحدى الفتيات بالداخل؟

ضحك بصوتٍ عالٍ، ثم نفخ دخان سيجارته وقال:

- بالطبع أبحث عن الفتيات، فيومٌ مثل هذا لا يكتمل إلا بفتاةٍ، ويا حبَّذا لو كانت بيضاء جميلة مثلكِ؛ فلقد اعتدت على السوداء والحِنطية والخمرية.

كلماتُه نزلت عليَّ كالصاعقة؛ فلقد كان تحرشًا صريحًا بل كان تمهيدًا لمحاولة اغتصاب مُؤكدة، نظرتُ من حولي فلم أجد (الطيب) ولا (حنين)، كانت دورة المياه فارغةً والساعة قد اقتربت من الثانية عشر والجو باردٌ جدًّا، وهذا الشاب يقف أمامي وعيناه تلمعان كالنمر الذي يتربص بفريستِه، حاولت أن أدنو من سُلَّم دورة المياه كي أهربَ منه ولكنه باغتني بخطوةٍ متقدمة حتى أصبح الفارق بيننا قدمًا واحدًا، فنظرتُ إلى السماء وقلت:

- أنجِدني يا أللّه!

- من الممكن أن تتقرَبي إلى الله وتَسعي إلى الفضيلة في مكانٍ آخر غير هذا المكان يا حُلوَتي.

ثم دَفَعني بيده داخل دورة المياه، فصرختُ في محاولة للاستغاثة بأي شخص في الحديقة، ولكن بلا مُغيثٍ، وبينما كان يحاول ذلك الشاب أن يدفعني للداخل إذا بي أرى السيدة (حنين) وابنها (الطيب) يدنُون من دورة المياه وهم ينظرون إليَّ يبتسمون ويقومون بعدِّ النقود. كانت السيدة صامتة، لا تتحدث، كان صمتُها يُثيرُ

دهشتي، فكان من المُنتَظر منها أن تفعل أكثر مما تصمت، ثم لوَّح (الطيب) إلى ذلك الشاب وقال:

- ليلةٌ سعيدة يا أبا الشباب!

لوَّح له مبتسمًا وقال:

- هذا ما كنت أريده يا (حنين)، استمري في ذلك؛ فاللونُ الأبيض له مذاق خاص.

كانت صدمةً بكل المقاييس، فخلال تلك الفترة لم أشعر يومًا أن السيدة (حنين) قوَّادة، لم أعلم أنها كانت تستخدمُني كي أكون إحدى فتياتها اللاتي يدرُرنَ عليها بثروة طائلة، كم أنا ساذجة! أثق في أي شخص! مُتفائلة إلى حد البلاهة! لأنني أُؤمن بقشة الغريق فلا أُفلتها أبدًا من يدي. تلك المرأة الشيطانية كانت تستغلُ دورة المياه ليلًا وتُحوِّلها إلى بيتٍ للأعمال المُنافِية للآداب؛ بمساعدة ذلك الابن الأبله، الذي كان ينظر إليَّ ضاحكًا بصوتٍ غطَّى على صَرخاتي حتى انقطع صوتي، فوجدتُ صرخاتي كُتِمَت بيدِّ ذلك الوحش المُتلبس في جسم إنسان. وجدتُ نفسي مُلقاةً على أرضية دورة المياه، نظر إليَّ بعينيه اللامعتين، وكأنه كلبٌ وجد للتوِّ عَظمةً يستعد لنَهشِها، كان يتحسس كل شبرٍ في جسدي بعينيه، كانت نظراته تقتلني، لم تُؤثِّر عليه توسلاتي، دنوتُ من حذائه وقبلته وقلت له:

- أرجوكَ اتركني، لا تفعل بي ذلك، سوف أعطيك كل ما أملك، سوف أُعطيك قِرطًا ذهبيًا، لكن لا تلمسني!

سحب قدمه، ودَنا مني ثم نظر إليَّ وقال:

- ستقومين بخلعِ ثيابكِ برضاكِ أو أقوم أنا بخلعِها عنوة.

كان هناك شباك صغير بدورة المياه، تظهر منه السماء بوضوح، نظرت إليها وتمنيتُ من الله أن أموت قبل أن يَلتهِمُني هذا الذئب، حتى سمعت صوت أحد الأشخاص بالخارج يتحدث للسيدة (حنين):

- هل دورة المياه تعمل الآن؟ فابنَتي الصغيرة في السيارة وتريد الدخول إلى دورة المياه.

كان هذا الرجل بالخارج.

عندما سمع ذلك الذئب هذا الرجل، أخرجَ سِكينًا، ووضع سَبَّابته على شفتيه وقال لي:

- إياكِ والنطق بشَفا حرف!

هززتُ رأسي بالإجابة والدموع تزرفُ من عيني، قالت له السيدة (حنين):

- لا يا سيدي، فلقد أغلقنَاها للاحتفالِ، كل عام وأنت بخير، بإمكانك الذهاب للفندق المُقابل لنا.

- شكرًا لكِ، وكل عام وأنتِ بخير.

وقتُها شعرت بخيبة الأمل واليأس، ولكنني فكرت للحظة وسألت نفسي: لماذا تركت موطني؟ لم أتركه لمثلِ تلك المواقف خوفًا من الاغتصاب والموت، وقتها قلتُ لنفسي أنني سأعيش مرةً واحدة ؛ إما أعيشها بكرامةٍ أو أموت، فقررت أن أصرخ بكل ما أوتِيتُ من قوةٍ غير مكترثة لهذا الذئب الذي يقف أمامي ولا إلى سِكينه:

- أغيثوني أغيثوني أغيثوني!

- مَن بالداخل يا امرأة؟

كان هذا الرجل.

- ليس لك شأنٌ، اذهب من هنا -كان هذا (الطيب).

- ماذا تقول ؟ أنت لا تعلم مع من تتحدث ! أنا العقيد (رامي المصري).

وما إن سمع ذلك الشاب اسم الرجل حتى فتح الباب وهرولَ مُسرِعًا إلى الخارج، فاصطدم بكتفِ ذلك العقيد الذي كان قد وصل إليَّ، فوجدني مُلقاةً على الأرض أبكي من هولِ الصدمة والفرحة معًا، كان رجلًا في مطلع الخمسينيات من العمر، ذا بشرةٍ بيضاء وشعر فضيٍّ، يرتدي سُترة سوداء وقميصًا أبيض وبِنطالًا أسود، دنا منِّي وقال لي:

- هل أنتِ بخير؟

نظرتُ إليه بابتسا مة خافتةٍ، مُتستِّرة في خوف مما هو قادم؛ فهو رجل شرطة وأنا دخلت إلى البلاد بطريقةٍ غير شرعية، وقلت له:

- نعم، أَحمَدُ الله على وجودكَ في هذه اللحظة.

- ما هي حكايتك؟ ولماذا أنتِ بمفردكِ في ذلك التوقيت المتأخر؟ أين أهلكِ؟

- أنا...

- ماذا بِكِ؟

نظر إليَّ بتفرُّسٍ وقضب حاجبيه وقال:

- إنَّ لهجتكِ ليست مصريةً، هل أنتِ سورية؟

- أرجوكَ لا تقبض عليَّ، أنا وحدي لا يوجد أحدٌ معي، كل أهلي قد ماتوا في الحرب، ولقد قَدِمت إلى مصر عن طريق السودان برِفقة أحد جيراني الذي قُبِض عليه، أرجوكَ اتركني.

- يا أللّه!

قالها واضعًا يده على رأسه ثم أتبعَ:

- كيف أترُككِ! وإن تركتُكِ فأينَ تذهبين؟ فإما سيكونُ مصيرك السجن ومن ثمَّ الترحيل، أو البقاء مع تلك السيدة القوَّادة والمُتاجرة بكِ. ما اسمكِ؟

- (نُوچين).

- (نُوچين)! تَعلمين يا (نُوچين) أن الله رزقني بابنتين تقريبًا في نفسِ سنك!

انحنى نحوي ونظر في عيني، وحدَّثني بنبرةٍ راقية تصلحُ لإطلاق الوعود وتمتينِ الثقة بين الأشراف:

- لا تخافي، من الآن أنتِ في مسؤوليتي حتى أقومُ باستخراج أوراق إقامتك الشرعية في مصر.

ساعَدَني على النهوض، وأخذ بيدي وذهبنا مُتجهين نحو سيارته التي كانت بالخارج وفي داخلها ابنتاه الاثنتان و زوجته وطفلة صغيرة لم يتعدَّ عمرها العامين. كنت بالكاد أمشي، كان مُمسكًا بيدي يساعدني على المشي، وعندما اقتربنا من السيارة بدأت زوجته في مسحِ الشبورة المتراكمة على زجاج السيارة لرؤية مَن تكون هذه الفتاة التي برِفقة زوجها! وصلنا إلى باب السيارة الخلفي ثم فتح الباب وقال مُحادِثًا إحدى بنتيه:

- تحركي يا (سارة) للداخل قليلًا، وأفسِحي المجال قليلًا لـ (نُوچين) يا (مريم).

نَظَرَا إلى بعضِهما في تعجبٍ. ونظرت إليه زوجته في غضبٍ وقالت:

- مَن تكون هذه الفتاة يا (رامي)؟

نظر إليَّ وأشار لي بالدخول:

- هيَّا، ادخلي يا (نُوچين).

- وتعرفُ اسمها أيضًا!

استشَاطت غضبًا منه، ونظرت إليَّ نظرةً كأنها ستأكُلُني بها. أغلقَ العقيد باب السيارة الخلفي، ونظرت ابنتيه إليَّ في تعجب؛ إلا الطفلة الصغيرة التي كانت تضحك إليَّ وتُتَهتِه بكلامٍ غير مفهوم إلا أن تعبيراتها تدل على الترحيب بي، ذهب السيد (رامي) إلى مقدمة السيارة وفتح الباب ثم دخل وأغلق البابَ بعنفٍ، أدارَ مُحرك السيارة وتحرك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثامن
حَيَاةٌ جَدِيدَةٌ

(جميع ما على هذه الأرض قابلٌ للفقد إلا العائلة)

حي (عباس فريد) بأسوان، مَطلع عام ٢٠١٥.

صباح اليوم الأول من يناير لعام ٢٠١٥؛ أجلسُ في شُرفة منزل العقيد (رامي المصري)؛ الذي صحبَني معه، وافقت زوجته مدام (هالة) على مَضض ولكنّي لاقيتُ ترحيبًا من ابنتيه (مريم) الصُغرى و (سارة) الابنة الكُبرى المتزوِّجة، و لكن ز وجها يعمل بالخارج ، ورز قهما الله بطفل تِهما الصغيرة ذات العامين (لي لي)، كنت أجلس في الشرفة وأستمتعُ بأُولى لحظات يوم جديد في سنة جديدة لعلها تكون سنة أفضل مما مضت. بدأ الفجر يُنير شرفات المنازل وتيجان المباني، وبدأت أعمدة الإنارة تَخفتُ شيـ ئًا فشيـ ئًا بالتو ازي مع استيـ قاظ ا لحي بكـ سلٍ وهو يتأهب لخلع قناع الألوان الشاحبة، ظهرت الشمس بين الظلام مثل إكليل نُحاسيٍّ سائل على حي (عباس فريد) بمحافظة أسوان. في البداية؛ اعتقدتُ أن سبب تسمية الحي وجود منزل الأديب (محمود عباس العقاد) بالحي، ولكن اتَّضح لي فيما بعد أن الحي سُمِّي بـ (عباس فريد) نسبةً لأول مدير أمن لمحافظة أسوان، كنت أجلس على

كرسيٍّ خشبيٍّ عتيق هائمةً أتذكر الأيام الخوالي التي كنت أعيشها في موطني، أتذكر بعد عامٍ من اختفاء أمي ما زال غيابُها حاضرًا بقوة كصرخة خرساء مُدوية، كفراغٍ تعجزُ الكلمات عن غمره، لن أنسى كيف ضاقت أنفاسُ أبي عندما رحلت جدتي عنَّا في ليلةٍ شتوية مُمطرة، فسألتُه إذا كانت السماء تبكي حزنًا لموتها! الآن أعلم مدى حزنه عليها، اختفت أمي أو ماتت، لا أعلم! لكن النور الذي يشُّع من طيبِ ذكراها كان دائمًا ما يُنير لي الطريق، كنتُ واثقة من أنها ستسمعُني ما إن أُغمِض عيني وأتكلم معها، عندما أُخرِج قرطها واتأمله وأتذكره، قلبي ينبضُ بشدة كأنه أراد أن يفتح ممرًا في صدري ليهرب منه! قطعَ حديث الذكريات الذي كان يُغالبني (مريم) الابنة الصغرى للعقيد (رامي المصري) والتي كنت أجلس معها في غرفتها، كانت فتاةً في أوائل العشرينيات من العمر، بيضاء البشرة، ذات جمالٍ أخَّاذ، قصيرة بعض الشيء، ذات شعر كِستنائيٍّ طويل، وعينين بنيتين صغيرتين، وكأنها قادمة من آسيا، وضعت يدها على كتفي فارتَجفت ثم التفتُّ إليها، فتَبعتني بنظرةٍ ينبعث منها الطمأنينة وقالت:

- لا تخافي!

سحبت كرسيًّا آخر كان موجود أمام الشرفة ووضعته، ثم جلست عليه وقالت:

- اجلسي يا (نُوچين)، أريد أن أتعرف عليكِ، من تكونين؟ ومن أين أتيتِ؟ ولِمَ كل هذا الخوف الذي كان في عينيكِ وأنتِ قادمة إلينا؟ وما كل هذه الكدمات على ذراعيكِ؟ جاء أبي بِكِ معنا وأَجلَسَكِ في منزلنا وجَعلكِ تسكنين معي في غرفتي، وجعلني أُعطيكِ من ملابسي، كل هذا ونحن لا نعلم عنك شيئًا، ولقد أَمَرنا بألَّا نتحدث معكِ حتى الصباح، وها قد أتى الصباح ولن أستطيع الانتظار أكثر من ذلك، فأنا فضوليَّة بعض الشيء.

نظرتُ لها وابتسمت وقلت:

- لا تقلقي، لن أُطيل الإقامة معكم.

- لن أسألكِ كي تشعرين بأنك ضيفًا ثقيلًا علينا، بل لأنني أريد أن أفهم وأعرف، من الآن اعتبريني أختكِ.

- للأسف ماتت أختي.

- إنني آسفة، لم أكن أعلم. إذًا فلتعتبريني صديقتكِ، أعتقد أننا في نفس العمر تقريبًا.

- لا يوجد لي أصدقاء وآخر من كنتُ أعتبرها صديقةً لي ماتت أثناء عبورنا من السودان إلى هنا.

- يا أللّٰه! لا تقلقي يا (نُوچين)، نحن معكِ، ولكن عندما كنتِ في هذه الحالة التي يُرثَى لها وقتما رأيناكِ مع أبي، ماذا حلَّ بكِ وقتها؟

- لا شيء، عند قُدومي من السودان لم أجد لي مأوى فاضطررتُ للعمل بالحديقة رِفقة إحدى السيدات التي كنتُ أعتبرُها أختي الكُبرى، ولكن اتضحَ لي في النهاية أنها قوَّادة وتستقطبُ الرجال راغبي المتعة الحرام ليُوقِعوا بالفتيات داخل دورة المياه الموجودة بالحديقة بمساعدة ابنها.

- وهل استخدمتكِ في تلك الليلة؟

- كنتُ سأتحوَّل لفتاةِ ليلٍ لولا تدخُّل أبيكِ أثناء محاولة اعتداء أحد الرجال عليَّ بمساعدة تلك القوَّادة، وأنقَذَني من أيديهم.

- لقد كُتِب لكِ عمرٌ جديد في هذه الحياة.

- حياة! أَتعلَمين أنني قد بدأتُ أنسى أن هناك حياة؛ فالحياة أكبرُ كذبة يُمارسها البشر يوميًا، الحياة توقَّفت منذ موت أبي، ثم تَبعَته أختي، ثم اختفت أمي و كذلك أخي، وبقيتُ أنا بمُفردي أترنَّح في تلك الكذبة المُسماة بالحياة.

بدأت الدموع تتساقط من عينيها، ثم احتَضنتني وقالت:

- أتألمُ لِما حدث معكِ يا (نُوچين)، لا تقلقي، نحن جميعًا إخوتك هنا.

بعد ساعتين تقريبًا من التحدُّث مع بعضنا البعض؛ أصبحنا صديقتين بحقٍّ، تحدثتُ معها باستضافة وأريحية. دخلت علينا (سارة) لتدعونا؛ لأن وجبة الإفطار قد حُضِّرَت من قِبَل مدام (هالة)، وقد كانت (سارة) في أواخر العشرينيات من العمر، ولها نفس ملامح (مريم) ولكن مع اختلاف لون العينين؛ حيث كانت عيناها خضراوين، شعرها قصير بالكاد يصل لحدود كتفيها، كانت تنظر إلى (مريم) بتعجُّبٍ مما هي فيه من معاملتها لي، صحبتنا إلى الصالة التي كانت في الدور الارضي، فلقد كان المنزل مُكوَّنًا من طابقين؛ في الطابق الثاني غرف النوم الخاصة بـ (مريم) و (سارة) والزوجين؛ العقيد (رامي المصري) و مدام (هالة)، وبين جميع الغرف رُدهة يكسوها ظلٍ لازورديٍّ، والطابق الأرضي مكوَّن من صالة كبيرة وغرفةً لاستقبالِ الضيوف. نزلنا من الطابق الثاني من خلال سُلَّمٌ خشبيٍّ ذي طراز قديم، وبكلِّ خطوة أخطوها كنت أسمع صريرَ الخشب المُنزَعج من تثبيته بمسامير غَلب عليها الصدأ وعفا عليها الزمان. وصلتُ إلى الصالة وتأمَّلت سقفها الذي يزدهي برسومات لوجوهٍ ملائكيَّة وكائنات خيالية و كأنها رُسِمَت في العصور الوسطى لـ (مايكل انجلو)، ورأيت صورة السيدة (مريم العذراء) مُعلَّقة على أحد جدران الصالة! تعجبتُ قليلًا مما رأيت ثم ذهبتُ إلى مائدة الطعام بعد أن دَعاني أستاذ

(رامي المصري)، كان يتوسَّط المائدة وعلى يمينه تجلسُ مدام (هالة) التي كانت في أواخر الأربعين من العمر، بيضاء البشرة، ذات شعر أصفر ذهبي لامع وناعم، عيناها ضيِّقتان ذواتا لونٍ عسليٍّ، وجهُها طويل بدأ يتزيَّن ببعض التجعيدات ونقاط النمش التي زادت من جمالها الشرقي، وإلى جانبها كانت تجلس (سارة) برِفقة ابنتها (لي لي)، وع لى يس ار أست اذ را مي تج لس (مريم)، وجل ست أنا بجانبها. سحبت الكرسي في خجل وجلست، نَظَرت إلي (مريم) وابتسمت إليَّ كي تُهوِّن عليَّ وتُكسِر الحاجز الذي صنع ذلك الخجل. نظر العقيد (رامي المصري) إلى أبنائه وزوجته ثم وضع رسغيه على المائدة وشبَّك يداه في بعضهما البعض وقبضهُما على بعضٍ ثم أغمض عينيه وحَنِى رأسه وقال:

- لنُصَلِّ.

بدأوا يفعلون مثله، وبدأ يقول:

- أيُّها الإله، يا من تُحبُّ الحياة، وتُطعِمُ طيور السماء، وتكسو زنابق الحقول، نُباركَ لأجل جميع المخلوقات، ولأجل الطعام الذي سنتناولُه، نسألك ألا تترك أحدًا في عَوَزٍ إلى قوته الضروري، بيسوع المسيح ربّنا. آمين.

ما هذا! إنه مسيحي! وأنا مسلمة ويأوِيني! كيف هذا! نظر إليَّ واشار للطعام وقال لي وهو يبتسم:

- بِسم الله يا (نُوچين).

علامة التعجب كانت واضحة عليَّ، قال لي:

- ام انك لا تأكلي مع مسيحيين. –قالها مازحا- فأمسكت بقطعة خبزا في ارتباك، ثم اتبع:

- لا تتعجبي، موسى نبي وعيسى نبي، وكل من له نبي يُصلي عليه ويقتدي به، أنتِ هنا في مصر وليست أي دولة أُخرى، هنا لا فرق بين مسلم أو مسيحيٍّ، لا يُوجَد ما يُسمَّى بلاجيٍ، لا يوجد ما يُسمَّى بسُنيٍّ أو شيعي أو كاثوليكي أو بروتستانتي، طالما عشت في مصر فأنت مِصريٌّ، هنا أرض الجميع ولِهذا سُمِّيت بأم الدنيا لأنها تحتضن الجميع وتحنو عليهم.

- نعم نعم، لكن السبب الأكبر لتعجُّبي هو أنكم لا تدّقون الصليب على أيديكم كما يفعل معظم المصريين الذين شاهدتهم في الحديقة.

- هوِّيتُنا معروفة، أنا مسيحي وعائلتي مسيحيَّة وليس من الضرورة أن أقوم بذلك، هي عادة ومناسبة؛ حيث تجتمعُ الأسر القبطية في منطقة السبع كنائس بمصر القديمة للقيام بذلك للأطفال بعد ولادتهم، ويُرجِعُ بعض المؤرخين هذه العادة إلى عهد المنصور بن قلاوون، حين كان المسيحيون يرسمون الصليب للتعبير عن تمسكهم

بهويته م الدينيـ ة وإيمانهم ، رغـ م تعرضه م للاضطهاد والعنف، ويقول البعض إن الرسم بدأ مع عصور اضطهاد المسيحيين واستشهادِهم بسبب إيمانهم بالمسيحيَّة، حيث كان الآباء يرسمون الصليب على سواعدِ أبنائهم من أجل أن يُميِّزوهم كمسيحيين في حال استشهاد الأبوين. كَثُرَت الروايات والتفسـيرات حول الأصل التاريخي لدقِّ الصليب، لكن الشيء الوحيد الثابت هو أننا أقباط مصر.

نظر إلى (سارة) ومدام (هالة) وقال:

- وأنتم الآن تريدون أن تعرِفوا مَن هي (نُوچين)! أليس كذلك يا (هالة)؟

نظرتُ إليها وقلت:

- لا عليكِ، لن أُطيل المكوث معكم، فسوف أذهب من هنا في أسرع وقت، بضعة أيام وسوف أتواصل مع المُفوَّضية التي تُدبر أمور السـوريين النازحـين في البلاد المختلفة كي يقوموا بتوفيق أوضاعي في مصر وأبدأ حياة جديدة.

- ولماذا؟ امكُثِي معنا طول العمر؛ فأنتِ مثل بناتي.

قالتها على مَضض، ثم نظر إليها العقيد (رامي المصري) في غضبٍ ونظر إليَّ وقال مرتبكًا:

- لا عليكِ يا ابنتي لا عليكِ، سوف تجلسين معنا لحين استخراج إقامتك وأنتِ من اليوم يجب أن تعلمي أنك في مقام بناتي (سارة) و (مريم)، وأنا في منزلةِ أبيكِ.

سمعتُ هذه الكلمة، وبدأت الدموع تتجمع في عيني ثم انهمرت مُحدِثة أنهارًا تجري على خدي وقد اِحمَّر وجهي، فتذكرتُ أبي الذي ذبلتُ من بعده وتفرَّقت أسرتنا بعد موته وقلتُ:

- استُشهِد أبي في سوريا، وكذا أختي الكبرى (سيدرا)، وفقدتُ كلًّا من أمي وأخي الأصغر (عمار) بعد غارةٍ شُنَّت على الحي الذي كنت أسكن فيه، ولا أعلم أين هما منذ تلك الغارة، وظللتُ وحيدة في هذا العالم المُتوحِّش، وما إن وضعت الحرب الأهلية أوزارها حتى أصبحتُ أعيش وحدي في ما تبقى من بيتنا، انتشرت الأمراض وشَحَّ الماء والغذاء والوقود والكهرباء، وكل ليلة كانت فوقي سماوات من رماد، كنت أعيش في ذلك الظلام وحدي، كانت الحياة مُوحِشة لا سبيل للعيش فيها، النهاية حتمًا ستكونُ إما الموت أو انتهاك جسدي والمُتاجرة بي من هذا وذاك، حتى أشار عليَّ أحد جيراننا بالهجرة إلى مصر عن طريق السودان من خلال مُهربين وذلك لارتفاع أسعار التأشيرة في مصر، فما كان لي إلا أن أُوافقه الرأي بعد تفكيرٍ عميق؛ حتى وصلت إلى أسوان بعد رحلةٍ

مرعبة ماتت فيها زوجةُ هذا الجار وقُبِضَ عليه من السلطات المصرية، ولجأتُ إلى العمل في هذه الحديقة مع السيدة (حنين) التي كانت تُتاجر في النساء في الخفاء، كنت سأكون إحدى ضحايا هاتو لا ستر الله ووجود سيادة العقيد في ذلك الوقت.

نظرتُ إلى العقيد (رامي المصري) مُشِيرة إليه بيدي، فنظروا إليه ثم نظروا إليَّ وقالت (سارة):

- عقيد!

نظر العقيد (رامي المصري) إلى الأرض خجَلًا، ونظرتُ إلى (سارة) وقلتُ لها وأنا أشير إلى أبيها:

- هذا...

مُشيرةً إليه. ثم أتبعت:

- أباكِ سيادة العقيد (رامي المصري).

فنظروا جميعًا إليه وبدأوا يضحكون ثم نظر إليهم وإليَّ، بدأ وجهه الأبيض في الاحمرار ثم ضحك معهم، عَلا صوت ضَحَكاتِهم ثم نظرت إليَّ مدام (هالة) فقالت:

- مبدئيًا؛ هو ليس بعقيدٍ؛ فهو كاتبٌ روائي معروف في أسوان.

- لقد فعلت ذلك كي أُنقذُكِ مما كنتِ فيه، لم يَكُن لي سبيل غير ذلك، تقمَّصت إحدى الشخصيات التي كتبتُ

عنها في رواياتي وبدأتُ أتعامل معهم هنا على أنني عقيد، والحمد لله جاء الأمرُ بنتيجة.

- انظري يا (نُوچين)، يتَّضِحُ عليكِ أنكِ من عائلة محترمة، والموقف الذي أنتِ فيه الآن من المحتمل أن نكون فيه لولا ستر الله وحفظِه لمصر. من اليوم أنتِ ابنتي ولا تخجلي من طلب شيء وسنعملُ جميعًا على مُساعدتك، أليسَ كذلك يا فتيات؟

- نعم يا أمي.

نظروا إليَّ جميعًا وابتسموا فابتسمت لهم، كانت أولى الابتسامات الصادقة منذ وفاة أبي، فقلوبنا تأنسُ دائمًا بتلك الابتسامة ودفءِ العائلة، حينها علمتُ أن العائلة هي كل شيء للمرء، بعد فقداني لعائلتي أدركتُ أن جميع ما على هذه الأرض قابلٌ للفقد إلا العائلة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل التاسع
مَتَاعِب

(كي يتأكدوا أنني أُكرِهُكِ على الدخول في المسيحية!)

يونيو، ٢٠١٥.

مرَّت ستة أشهرٍ وأنا أعيش مع عائلة الاستاذ (رامي المصري)، وخلالَ تلك الفترة لم يُشعِروني يومًا بأنني ضيفٌ ثقيلٌ عليهم أو أنني غريبة عنهم؛ رُغم كل الصعوبات التي كانوا يواجِهونها من أقاربهم وجيرانهم، والفضول الذي يسري في دماء النساء والتساؤلات الكثيرة التي تُطرَح عليهم، مَن تكون هذه الفتاة؟ ولماذا تسكن معهم؟ مُسلمة وتعيش مع أسرة مسيحية! أقاويل ومُهاترات عديدة، ومواقف صعبة مرَّ بها هذا الرجل لكي يحميني، ولقد عانيتُ من أحد تلك المواقف؛ ففي أحد الأيام كنت أقف في الشرفة أنا و) سارة) و) مريم) ومعنا الطفلة (لي لي)، وكان يأتي من بعيد الأستاذ (رامي) مُمسكًا ببعض الأكياس البلاستيكية الممتلئة ببعض الأغراض، فلوَّح لنا عند رؤيتنا، وعند اقترابِه من المنزل استوقفه شابٌّ أسمر البشرة، حليق الرأس، يرتدي جِلبابًا أبيض يُسمَّى (عبد الله)، وشابٌّ آخر حِنطي البشرة ذو شعرٍ أسود كثيف ولحية خفيفة، يرتدي قميصًا مُقلَّمًا وبنطالًا

أسـ ود يُسمَّى (خالد)، ورجلان كبيرا ن، أحدهـ ما والد (خالد) حِنطي البشرة، أصلع، يرتدي جِلبابًا رُماديًّا، والآخر يُسمَّى (أبو عمر)، أسمر البشرة، عيناه جاحِظتان، يرتدي جِلبا بًا أ صفر اللون. بادر (أبو خا لد) و ذهب مُتجهًا نحو الأستاذ (رامي)، فاستوقفه هـو و)أبو عـمر) ومن خلفِهما الشابان وقال له:

- كيف حالُك يا (أبا سارة)؟

فقضبَ الأستاذ (رامي) حاجبيه متعجبًا وقال:

- بخيرٍ. كيف حالكم أنتم؟ -قالها وهو ينظر إليهم جميعًا.

- بخيرٍ. سأدخُلُ في صُلب الموضوع الذي أتينا إليك بسببه.

- تفضَّل يا (أبا خالد).

- لقد علمنا بأنك تأوي إحدى الفتيات اللاجئات السوريات.

- أولًا، هي ليست لاجئة، لأنه لا يوجد ما يُسمَّى بلاجئٍ في بلدكَ. ثانيًا، ما الضرر في ذلك؟

شارك (خالد) في الحديثِ فابتعد (عبد الله) من أمامه، وتحرك والدُه قليلًا كي يفسح المجال لابنه وقال:

- الضرر هو أنها مسلمة، وهي ليست على دينك ونحن أولى الناس بها وليس أنت!

رفع الأستاذ (رامي) رأسه ونظر إليَّ، وكأنه يُطمئِنَني، ثم نظر إليهم وقال:

- أنتم أَولى الناس بمن هم في عائلاتكم، والله لم يُعَيِّنَكم وصايا على خلقه!

بدأ الناس في الخروج من الشرفات وبدأ مَن هم داخل المِحال التجارية المتواجدة في الحي أن يجتمِعوا حولهم، ثم قال (أبو عمر):

- تنحَّى جانبًا يا (خالد) واصمُت! انظر يا أستاذ (رامي)، لو أنها لجأت إلينا لِما خذلناها، ونحن نُثمِّنُ ما قمت به تجاه إحدى الفتيات المسلمات، ونحن لا نقصد الإيذاء أو افتعال المشكلات بمجيئِنا، ولكننا نسعى لأن نقوم بما يتوجب علينا تجاه موقف كهذا، وقولُ (خالد) بأننا أولى بها فهو يقصد الزواج منها.

بدأ الناس الذين تجمهروا يتهامسُون فيما بينهم، ثم دخلت علينا مدام (هالة) مُتسائلةً:

- ماذا هُنالك؟ (رامي)، ماذا يحدث؟!

قال الشاب الآخر الذي يُدعى (عبد الله) مُنفعلًا:

- وما الذي يُؤكِد أن يكون هذا المسيحي قد قام بغسيل دماغ الفتاة كي يُدخلها المسيحية مُستغلًا عطفه عليها واحتياجها؟

زاد تهامُس الناس أكثر وأكثر، فجاء أحد الرجال يُسمَّى الحاج (يوسف)؛ وهو شيخ في مسجد الحي، كان طويل القامة وقوي البنية رُغم كِبر سنه؛ فهو في أوائل السبعينيات من العمر، قمحي البشرة، ذو عينين بنيتين، أصلع بالكاد ينبتُ بعض الشعر الأبيض في مؤخرةِ رأسه على استحياء، حليق الذقن واللحية، يرتدي جلبابًا فُستقِيَّ اللون، قال:

- اصمت يا هذا، وأنتم! -مشيرا إليهم- أَلا تَستحون مما تقولون؟ تُتاجِرون بالفتاة هكذا على المَلأ! لم يكُن لها أب ولا أم أو حتى أخ أو أخت، وأصبح الأستاذ (رامي) هو وعائلته أهلًا لها، فماذا تقول يا هذا؟ أَلا تعلم بأن هذه الفتاة مُواظبةٌ على الحضور في جلسات تحفيظ القرآن بالمسجد الذي لا أراكَ فيه إلا يوم الجمعة وبالصدفة! وأنت يا (أبا خالد)، أَلَا تستحِي مما تفعل برِفقة (أبي عمر)؟ تُعطون آذانكم إلى الشباب!

- إنني أريد تزويج ابني، ولقد علمت أن مهور السوريات قليلة.

قالها (أبو خالد)، فردَّ عليه الحاج (يوسف) مُنفعلًا:

- خَسئتَ يا رجل، أَلِهذا قد أتيت؟ لا تُقحِم الدين فيما أنت قادمٌ إليه، إن الدين بريء منكَ ومِن أمثالك!

ثم وقف ورفع يديه باتجاهِ الناس وقال:

- أيها الناس، إن هذه الفتاة في حمايتي وحمايتكم حتى يُحدِث الله بعد ذلك أمرًا، هي من أهلي وهي تجلس عند أبيها الأستاذ (رامي) الذي والله ما علِمنا عنه هو وعائلته إلا كل الخير.

انصرف الناس إلى مضاجعهم. وقف أربعتهم في حالةِ غضب، ثم اصطحبَ الحاج (يوسف) الأستاذ (رامي) إلى باب المنزل، فنزِلنا نحن بدورنا إلى الأسفل لنَستقبله. دخل إلى المنزل فوَجدنا في انتظاره، ذهبت (مريم) و)سارة) إليه واحتضناه، فوَقفتُ متأثرة أبكي ولا أعلم ماذا اقول! فأنا مَن تسببت في كل ما يحدث. وقفت أمامي مدام (هالة) وقالت:

- لا عليكِ يا (نُوچين).

جاء إليَّ الأستاذ (رامي) ووضع يده في أحد الاكياس التي يحملها وأخرج منها صندوقًا مُكتسيًّا ببعض الألوان المبهجة وقال لي:

- افتحيه!

أمسكتُ الصندوق ودموعي تغلُبني، ومدام (هالة) تقوم بتَهدِئتي. بدأتُ في فتحِه، فأخرجتُ منه سجادة صلاة ومِسبحة إلكترونية وإسدالًا لأُصلِّي به. لا أدري ما الشعور

الذي شعرتُ به حينذاك! كنت قد اعتقدت بأنني نسيت الشعور الذي يكون في مثل هذه المواقف، غَلَبتني دموعي فَرحًا هذه المرة، فقال لي مازحًا مُبتسمًا:

- كي يتأكدوا أنني أُكرِهُكِ على الدخول في المسيحية!

كان هذا أحد المواقف التي تعرَّض لها الأستاذ (رامي) بسبب وجودي معهم في البيت، وهناك مواقف كثيرة؛ ففي بداية الأمر كانوا يكذبون على الناس ويقولون أنني أحد أقاربهم، حتى بدأت أذهب إلى جلسات تحفيظ القرآن التي كانت في شهر رمضان؛ حينها تعجَّبت النساء في المسجد، وبدأوا يُحدِّثوني عن القرآن والدين الإسلامي وشعروا بأنهم يقومون بعملٍ عظيم اعتقادًا منهم بأنني مسيحية، ومِنهُن من انصَرَفت عني خوفًا من الملاحقات الأمنية التي تُطيل من يشير على مسيحيٍّ أو مسلمٍ بالدخول في دين الآخر في مصر، فهناك ضوابط وضعتها الدولة لذلك، هذا بخلاف ما كانت تتعرض له مدام (هالة) من مضايقات عند ذهابِنا للمناسبات وسؤال النِّسوة عني، وإشارة البعض لها بأنه من الضروري أن أترك المنزل لأن وجودي معهم سوف يعود عليهم بالضرر. وحدث ذلك الفعل؛ فلقد أتى الأمن لاستدعاء الأستاذ (رامي) بخصوصِ وجودي معهم، وتعهدَ لهم وقتها كتابيًّا بأنه مسؤولٌ عني حتى يتم استخراج قرار

الإقامة لي، بالطبع كان هذا بمُساعدة أحد أصدقائه من اللواءات الذين يعملون بمديرية أمن اسوان، لولا ذلك لكانَ مكاني الشارع أو السجن حتى يتم ترحيلي إلى سوريا.
خلا ل تل ك الفتر ة التي قَضيتُه ا معهم ؛ وجدتُ الأستاذ (رامي) مُثقَّفًا جدًّا ذا علاقات كبيرة مع لواءات بالشرطة وصحفيين وفنانين وأدباء، وفي يوم دخل عليَّ وأنا أستمعُ لموسيقى الموسيقار (عمر خيرت) وخصوصًا مقطوعة (قضية عم أحمد)، وأقرأ رواية (الضفة المظلمة). دخل عليَّ وقال:

- ماذا تقرأُ ابنتي الصغيرة؟

مالَ برأسِه كي يرى عُنوان الكتاب الذي أقرأه، وطأطأ رأسه ورفع حاجبيه وقال:

- (الضفة المظلمة)، خوسيه ماريا ميرينو. تقرأين في الأدب الإسباني يا (نُوچين)!

ابتسمت إليه ثم قلت:

- نعم، وكارلوس زافون، أنطونيو مُونيز، وجوزيه ساراماجو. أنا مغرمة بالأدب الإسباني والبرتغالي.

- وما الذي يشدُّكُ في هذا النوع من الأدب يا تُرَى؟

- بخلافِ طريقة السرد والحبكة، فإنه أدب متنوع.

- كيف؟

- التنوع يأتي من خلال ا لفردية التي كانوا يستخدمُونها وكذا الانفتاح نحو تراث أوروبا، وكذلك التراث الشرقي نظرًا للفتوحات الإسلامية. لِذا تشعر عند قراءتِك رواياتهم بالأصالةِ والواقعية.

نظر إليَّ مبتهجًا وقال:

- لم أكُن أعلم أنك مثقفة إلى هذه الدرجة يا (نُوچين)! ماذا كنت تدرسين قبل اندلاع الحرب في سوريا؟

- الآداب، قسم اللغة العربية.

ابتسمتُ خجلًا، فقال لي وعلى وجهه ابتسامة مُشرقة:

- هذا جميل جدا، ما رأيك في استكمال دراستك هنا في مصر؟

رفعت رأسي وتوسعت عيني فرحا من الصدمة، وأومأت بالإجابة ثم اتبع:

- أما عن الكتب فاذهبي في أي وقتٍ إلى مكتبي سوف تجد ين مكت بة مليـ ئة بت لك الأعما ل، اختا ري من ها ما تشائين، وإن أردتِ مُناقشتي في أيٍّ من هذه الاعمال فسوف أكون معك، ووسطِ تلك الأعمال سوف تجدين رفًّا صغيرًا يحمل اسم (رامي المصري) موجود فيه أعمال لهذا الكاتب، من الممكن أن تقرأي له، يقولون أنه يكتِبُ جيدًا.

قال هذا مازحًا وبدأنا في الضحك سويًّا فقُلتُ:

- لقد استعرتُ بالفعل بعض أعمالك؛ جعلتُ (مريم) تأتي لي بواحدٍ تلو الآخر خِلسةً.

قُلتها مازحة وأنا أضحك. أعلم أن العائلة لا تُعوَّض ولكن هذه العائلة عوضَتنِي كثيرًا عما مضى، وهوَّنت عليَّ الغُربة، يكفي أنهم من جعلوا الابتسامة تُرسَم مجددًا على وجهي، هم من استطاعوا أن يُدخِلوا الفرح إلى قلبي، في بداية إقامتي في مصر لم أشعر بدِفء الشمسِ إلا عندما أتذكر أنها هي نفسُها التي تشرق في وطني.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل العاشر
صُدْفَةٌ

)لا يوجد لقاءات عبثية في الحياة، كل شيء بقدر، فكل إنسان تصادفه هو اما اختبار من الله أو عقوبة، أو هدية منه)

يوليو، ٢٠١٥. -السوق السياحي بأسوان.

كانت ليلةُ عيد الفطر المبارك، خرجت في جولةٍ إلى السوق السياحي برِفقة (سارة) و)مريم)، كانت أول مرة أذهب فيها إلى السوق، مكان من أماكن أسوان الذي توقَّف عنده الزمان مِن كثرة ما فيه من تنوُّعٍ وجمال؛ مرصوفٌ بحجر الجرانيت المشهورة به المدينة، تشعرُ فيه بعبقِ الماضي، فيه مقامات لأولياء كُثر. على اليمين واليسار؛ محلات تُحَف ومحلات عطارة، مَقاهٍ، محلات ملابس وبائعة جائِلون في منتصف السوق. كانت آخر ليالي رمضان، والأجواء رائعة؛ فالسوقُ السياحي في أسوان جميلٌ بشكلٍ لا يُوصف، له متعة رغم الزحام الشديد، كنت أعيش الأجواء الرمضانية كما يجب أن تكون؛ وكأنها أول ليلة في رمضان وليست الأخيرة، وأثناء سيري وجدتُ سيدتين سوريتين تتسولان! أجبرت نفسي بجهدٍ يفوق طاقة البشر كي أبتلع ريقي، شعرتُ بالضعف، تناثرت

الدموع على خدي وضاق صدري، فكان من الممكن أن أكون مكانهما! لاحظت (سارة) هذا، فمَسَكت بيدي وقالت:

- هوِّني عليكِ يا (نُوچين).

نظرتُ لها وطأطأتُ رأسي، استكملنا جولتنا ولكنني قد ذهبتُ بذاكرتي إلى سوريا؛ حيث تذكرت أيام رمضان بعد أن كنا ننتظرُ سماع صوت المدفع لإعلان حلول شهر رمضان، تحوَّل هذا الصوت إلى طقسٍ يومي في كل ساعة نعيشها جرَّاء الحرب وأصبح الصيام مصبوغًا بصوت المعارك ولون الدم. أما عن فوانيس رمضان التي كنا نذهب للأسواق لشرائها كنوعٍ من الاحتفال والبهجة وكنا نُزيِّن بها الحي؛ أصبحت لا تنطفئ لتنيرَ ظلمة ذلك الحي الذي أصبح مثل حي الأشباح لكثرة القَتلى والظلام الدامس الذي يُخيِّم عليه عند حلول المساء. قاطَعَتني (مريم) قائلةً:

- ما رأيكِ في هذه التنورة؟

- جميلة.

كانوا حقًّا يحاولون أن يملؤوا الفراغ الذي تركته عائلتي، كانوا يحاولون ألَّا يُشعِروني بفرقٍ أبدًا، طيلة الشهر الكريم وهم يتسحرون ويُفطِرون معي، لا يُظهِرون لي أيَّ مظهر

من مظاهر الضيق أو الانزعاج، كنت أخجلُ من كثرة هذا الكرم الذي هُم فيه، كانت مدام (هالة) تُوقِظني كي أشرب قبل أذان الـ فجر، أكر موني حقًّا، حا ولوا جا هدين ألَّا يجعلوني أشعرُ بالغربة والوحدة والفقد الذي كنت فيه، ولكني افتقدتُ الكثير؛ افتقدتُ حلويات رمضان مثل خبزِ المعروك والناعم، والبقلاوة المحشيَّة بالفستق الحلبي، والنمّ ورة بالق شطة والس كر. افتق دتُ أحد التقاليد السورية وهي السكبة؛ عندما كنا نتبادل الأطعمة قبل أذان المغرب أو أذان الفجر، أَتَعلمون أكثر ما اشتقتُ إليه في رمضان؟ اشتقتُ لأبٍّ يُئِمُّني في الصلاة وأم تُوقِظني للسحور.

كنت أنظر حولي أُطالِع البهجة التي رُسمَت على وجوه المارة في السوق، بالكاد أستطيع المشي لكثرةِ المارة للتبضُّع ولشراء ملابس العيد. أشارت لي (مريم) بالذهابِ إلى أحد عر بات المشرو بات السر يعة ا لتي تقف عند مدخل السوق، فوافقتُ على الفور؛ فقد أطبقت على أ سوان م وجةٌ من القَيْظ الـ خانق فار تفعت على إثرها الحرارة، كانت الحرارة تفوقُ الأربعين درجة، ذَهبنا إلى العر بة وطلب نا المشرو بـ ات ثم أكمل نا طريق نا لإنها ءِ ما

بدأناه، وقبل دخولنا للسوق مرة أخرى بخطوات، نادى أحد الأشخاص:

- يا آنسة، يا آنسة!

وقَفنا جميعًا، التفتُّ فوجدت (كريم)؛ شابٌ طويلُ القامة، ذو شعرٍ خفيف وعينين عسليتين وبشرةٍ خمرية، وزاد من وسامته ذقنٌ خفيف زيَّن وجهه البشوش، اقترب منَّا وهو يتنهد وجبينه مُرصَّع بحبات العرق، فقالت له (سارة):

- ماذا هُنالك؟

ردَّ عليها وهو ينظر إليَّ غير مُبَالٍ لـ (سارة):

- نعم، فهناك شيءٌ قد وقع منك. -قالها مُوجِهًا حديثه.

وقفتُ مترددة قلقة، أصابتني صاعقة من الخجل قطعت لساني وحوَّلت لون وجهي من الأبيض للأحمر وصوَّبت عيني نحو قدمي التي كانت بالكاد تحملني، شعرت (مريم) بارتباكي فقالت:

- لم يقع شيء مِنَّا يا هذا!

- بل وقع منها هي.

أخرج المِسبحة الإلكترونية الخاصة بي؛ التي أهداني إيَّاها الأستاذ (رامي). فنظرتُ إليه في تعجب! قد ضاعت

المِسبحة مني منذ أسبوع تقريبًا! نظرت (مريم) و)سارة) لي في تعجبٍ، ثم نظرت (سارة) له وهي مقضِبة حاجبيها، ومدَّت يدها وانتزعت منه المِسبحة، فتغير لون وجهه وكأنها اقتلعت قلبه وقالت:

- شكرًا لك.

حاول أن يُبدِّئ حديثًا جديدًا، ولكننا قد أدَرْنا ظهورَنا له منصرفين، فلوَّح بيديه وقال:

- لن تكون المرة الأخيرة، إذني أعرفُكِ و لن أتركِ. ما اسمكِ؟

قالها وهو يضحك.

انصرفنا عنه، وأخذت (سارة) و)مريم) ترددان ببعض الكلمات التي زادت من خجلي أكثر، فأصبَحَت شفتاي موارِبَتين على ابتسامة مُفعَّمة بالخجل والارتباك، فقالت (مريم) وهي تُداعبني:

- أصبح لكِ معجبون يا (نُوچين).

فقالت (سارة):

- هذا ليس بإعجابٍ، إنه الحب.

لا يوجد لقاءات عبثية في الحياة، كل شيء بقدر، فكل انسان تصادفه هو اما اختبار من الله او عقوبة، او هدية بعثها الله لك. الحبُّ! كيف لشابةٍ مثلي أن تُحب؟ كدِّتُ

أن أنسى تلك الكلمة المُسمَّاة الحب! كيف لفتاةٍ تعيش على الماضي وذكرياته أن تحب؟ كنت مُقتنعة تمامًا أن الكآبة التي رسَّختها الحرب بالإضافة لآلام الفقد المكتومة من الأشياء الطبيعية كاختلاف الليل والنهار، بل كنتُ مقتنعة أكثر أن التعاسة التي تقطُرها ذكرياتي وتظهرُ على وجهي العابس رغم جمالي تُعبِّر عن روحي، لا أستطيع أن أكذب وأقول أن (كريم) لم يُثِرْ إعجابي، لكنه الخوف؛ الخوف مما هو قادم، كنت خائفة من كوني لاجئةً سورية هاربة من براثِن حرب ضَروسٍ سَوَّت أحياءً كاملة بمَن عليها، فرَّقت الأب والأم، الأخ والأخت، الزوج والزوجة والأبناء؛ إما بالقتل أو الفقد أو الاختطاف والاعتقال، كنت خائفة من استخدامي كفتاة في مصر، فلقد كان بعض الأشخاص يُتاجرون بنا نحن الفتيات، والبعض كان يستغل كسرتِنا ووحدتنا وعدم وجود سندٍ معنا يحمينا من أقدار الزمان الغادرة، فمنهم من كانوا يخبرون السوريات بأنهم سيتزوجون بهن لمساعدتهن ومساعدة أسرهن، ولكن أَلَا يستطيع هؤلاء الرجال مساعدة السوريات دون الزواج بهن؟ وإن حدث وتزوجهن؛ فإن معظم تلك الزيجات تحدثُ مقابل مهور صغيرة جدًّا، وبعضها دون مهور على الإطلاق، هذا بخلاف حالات التحرش الشديد وممارسة الجنس للبقاء على قيد الحياة والزواج القسري واستغلال الفتيات اللاتي دون معيل

لممارسة الدعارة كما كان سيحدث معي، وهناك السوريات اللاتي يتخِّذن من الزواج وسيلة للحصول على إقامة في مصر، ولكن سرعان ما تنتهي تلك الزيجات بالطلا ق، وه ذا لا يُعَمَّ مُ ع لى كل المصريين، ف ها هو الأستاذ (رامي المصري) أَوَاني وجَعلني ابنةً ثالثة له، رُغم أنه ليس من ديني! هذا بخلافِ معظم الشعب المصري الذي رحَّب بنا -نحن السوريين- على أن مصر بلدهم مثل سوريا ولا وجود لمُسمَّى (لاجئٍ) في مصر ولا مخيَّمات كالبلدان ا لأخرى و منها ا لعربية، و مصر ل يست ا لوحيدة التي يتم استغلال الفتيات بها، فهناك نساء وفتيات اضطرَرن إلى الزواج من مُوزِّعي المساعدات الإنسانية لفترات قصيرة لتأم ين حُصول هن ع لى الطع ام مقا بل ما يسمَّى ب (خدمات جنسية) في سوريا وبعض المخيمات التي بالبلدان العربية، بل إن كثيرين من عمال الإغاثة كانوا يطلبون أرقام هواتفهن ويعرِضون عليهن إيصالِهن لمنازلهن بسيارتهم مُقابل زيارتهن في منازلهن وقضاء ليلة معهن، فسُحقًا للحرب التي أبرزت الوجه الشيطاني للإنسان.

في المساءِ ؛ اجتمعن ا على طاول ة الطعام ، وكا ن الأستاذ (رامي المصري) يُشَغِّلُ التلفاز على أغنية (يا ليلة العيد) ل

(أم كلثوم)، كانوا يتحدثون وأنا شاخصة أفكِّرُ في ذلك الشاب، فقال الأستاذ (رامي):

- ماذا بكِ يا (نُوچين)؟

تغامَزت (مريم) و(سارة)، وقالت (مريم):

- لا يُوجد شيء يا أبي، فهي تفكر في القميص الذي رَأته في السوق الليلة.

- قميص! هل هو جميلٌ إلى حدٍّ يَجعلُكِ تضعين الخبز في كوب الماء وطبق البيض أمامك؟ -قالها وهو يقضبُ حاجبيه في تعجب.

ارتَطَمت يدي بكوب الماء فوقع على الطاولة فأغرقها، فقُلتُ:

- أنا آسفة، لم أقصد.

- لا عليكِ يا (نُوچين)، لا عليكِ. -قالتها مدام (هالة).

فقمتُ مرتبكة محاولةً الذهاب إلى المطبخ، فقال السيد (رامي):

- إلى أين؟

- إلى المطبخِ لإحضار قطعة قماش لأُجفِفَ الطاولة من الماء.

فردَّت (سارة):

- لا، اجلسي سوف أذهب أنا، أكمِلِي طعامك.

قالتها بغمزة شيطانية.

- أكمِلِي طعامك وبعد أن تنتهي، أحضِري لي هذا القميص لنراه أنا و)هالة).

حاولتُ التحدث فقَاطَعتني (مريم):

- لن تُحضِره يا أبي.

- ولماذا؟

قالها متعجبًا.

- لأننا ذهبنا بسرعة.

- لا أستطيع أن أفهَمُكِ يا (مريم) ، ما هذه الألغاز، ماذا تقصدين؟

حاولت (مريم) أن ترُّد، فقاطعتها (سارة) وهي تمسح الطاولة:

- هي تقصد أن القميص لم يَكُن على مقاس (نُوچين)، فذهبنا بسرعة لإِحضار غيره، أليسَ كذلك يا (نُوچين)؟ قالتها مُوجِهة كلامها لي.

- نعم يا أستاذ (رامي)، هذا ما حدث.

- وهل اشتريتِ واحدًا غيره؟

- نعم، ولكنني اشتريتُ فستانًا أبيض مُزركشًا جميلًا.

- هنيئًا لكِ، وكل عام وأنتِ بخير، والعام القادم تكونين في أحسن حال.

- وأنتَ بخير، يا خير الناس.

أنهيتُ عشائي ثم قمت بصُحبة (مريم) لتنظيف الطاولة وغسلتُ الأطباق، ثم تركت (مريم) بصُحبة (سارة) في الصالة، وذهبت إلى غرفتي، كان الضوء مفتوحًا فأطفأته، أغلقتُ الباب بكعبِ قدمي وأسندتُ ظهري عليه وأنا أفكر في ذلك الشاب، جلستُ على كرسي هزازٍ عتيق في الغرفة أكاد أُجزِمُ بأنه من مَوروثاتِ عائلة الأستاذ (رامي)، جلست أهزُّ نفسي في حركة لا إرادية، حينها هبَّت نسائمَ خفيفة على غير المعتاد في ذلك التوقيت من العام في أسوان، وحرَّكت الستائر، لم يُغالبني النعاس ولم تكن لي رغبةٌ في النوم، ليس لأنها ليلة العيد فقط؛ بل بسبب ذلك الشاب الذي أَسَرني، فاتجهت نحو الشرفة، أطللتُ منها ونظرت صوب أضواء الحي العتيق، فوجدت ملامح رجل ثابتة في سياق من الظل، كان يرتدي لباسًا بالكاد أُميِّزه، يدخِّن سيجارة، كان لمعانَ جمرة السيجارة ينعكس في عينيه، يضع إحدى يديه في جيب بنطاله والأخرى تحمل السيجارة التي ترسم شبكة من الدخان المائل إلى الزرقة المُتلوي كالثعبان على جانب من وجهه، ظل واقفًا بعض الوقت وهو ينظر نحو الشرفة، لا أعلم هل كان

يراقبني أم يُراقب منزل الأستاذ (رامي)؟ انتابتني تلك الحيرة لأن من يجلس في شرفة الأستاذ (رامي) يرى كل من بالخارج، ولكن من بالخارج لا يراكَ إلا عندما تقف. كنت خائفة جدًّا من أن يكون منزله مُرَاقَبًا بسببي، ظل هذا الراجل يراقب الشرفة لأكثر من دقيقة وأنا أُراقبه أيضًا، فأردتُ أن أغلب ظنوني؛ فوقفتُ مرة واحدة ونظرت صوبه، فاعتدل ذلك الرجل ورمى السيجارة على الأرض، ثم لوَّح لي. غير معقولٍ! لقد كان ذلك الشاب المسمى بـ (كريم)! وقفتُ مُتسمِّرةً فتصبَّبَ العرقُ على جبيني، ثم دخلت بسرعة إلى الغرفة فارتَطَمت قدمي بالكرسي الهزاز الذي كنت أجلس عليه، فسقطتُ على الأرض وأنا أضحك، لم أشعر بالألم الذي سبَّبه الارتطام بالكرسي، أَلِهذا الحد! لقد كنت أفكر فيه منذ لحظات! المرة الأولى لم تكن صدفة وتلك الثانية أيضًا ليست بصدفة، فهل حقًّا يحبني ذلك الشاب؟ لماذا؟ إنني أخاف من التعلق، لا أُخفِي سرًّا أنني أخاف على أسرة الأستاذ (رامي)، فما بال لو تعلق بي أحدٌ وأحبَّني! لقد شعرتُ بأنني نذيرُ شؤمٍ على من يعرفني، يدورُ بمُخيِّلتي أن الموت يد لشخصٍ مجهول يُباغت كل من أعرفه، أو أنه يمشي إلى جانبي ويُلازمني وله وجهُ رجل وقلب مسمَّم بالحقد، أخاف أن يتملك ذلك الشخص مِمَن أحب، كانت تُراودني أفكارٌ بأن أذهب في الجبال وأعيش وحدي راهبة كي لا أؤذي أحدًا دون قصد،

أ و أن يأتي ذلك ا لرج ل ذو ا لقلب ال مسمم بالح قد ويخطفُ من يحبني وأحبه، كنت رافضةً لنفسي، كان الإحباط والخوف يَستَشرِيان فيّ، ولكن رغم ذلك كنت أحب في نفسي صلابتي أمام كل ما مررت به، بقيتُ لساعات مع نفسي أُراقب أيامي، أبكي، وأندب حظي، ولكن في النهاية أُلملِمُ كل هذه الآلام والأوجاع، وأخرج وكأنني لم أحصل يومًا إلا على النصر، ولكن الخوف كل الخوف مما هو قادم؛ فالحياة خرابٌ يضبطه الموت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الحادي عشر
حُبٌّ

(سحقًا للأحزان التي جعلت مني شخصًا يشك حتى في اللحظات السعيدة)

فجر يوم ٢٢ أكتوبر، ٢٠١٥.

معبد (أبو سمبل) بأسوان.

في أحضانِ النيل، وفي جوٍّ خريفيٍّ مائل للبرودة، تركتُ نظري يطوف حول المكان، ليس هناك ما يُثير مشاعري كالمشهدِ الطبيعي الذي لا أَمَلُّ منه في أسوان؛ تبدأ أشعة الشمس تتحسس طريقها خلف الجبال الصفراء على استحياءٍ، ثم تتلاقى أشعتها بصفاء نهر النيل الأزرق اللون، فتنعكسُ مُحدِثة ضوءًا ذهبيًّا يكادُ أن يقتلع قلبي من شدة رونقه، ليس هذا فقط ما كان يُثيرِ مشاعري، فحينها كنت أقف أمام تحفةٍ لم أرَ لها مثيلًا مِن قبل، منحوتة في قلب جبل صخري تُسمَّى بمعبد (أبو سمبل)، لملك من ملوك مصر القديمة يُسمَّى (رمسيس الثاني). ذلك اليوم تحتفل فيه أسوان بتعامد الشمس على وجه أحد التماثيل الموجودة له في المعبد في ظاهرةٍ فلكية فريدة، تحدثُ مرتين في العام وليست مرة واحدة. ليس هذا فقط ما أبهَرَني، بل إن هذا الملك قد أحبَّ فتاةً من

عامة الشعب، فتزوجها. ومن كثرة حبه لها أقام لها معبدًا با لقر ب من معبد أبو سمبل وأسـ مَاه على اسمها (نفرتاري)، ويظهرُ هذا الحبُّ الفياض جليًّا من خلال الكلمات الرقيقة التي نُقِشت على جدران ذلك المعبد؛ والتي يصف فيها رمسيس الثاني زوجته الحبيبة بأنها ربَّة الفتنة والجمال وجميلة المحيا وسيدة الدلتا والصعيد، ولولا إلحاح (مريم) عليَّ بالذهاب معها لِما عرفت قصة الحب الجميلة هذه! كانت الأجواء مليئةً بالاحتفالات، العديد من الزائرين من كل بقاع الارض أتَوا ليَروا هذه التحفة، كنَّا معهم، وبعدما شاهدنا تلك الظاهرة خرجنا لنستمتع بجمالِ شمس أسوان أمام نهر النيل مباشرةً. ذهبت (مريم) لإحضار بعض الطعام، وذهبت أنا لِأحدِ الأماكن المخصصة لأخذ الصور التذكارية الموجودة أمام المعبد، وإذ بأحدِ الأشخاص يقول:

- إذا سمحتي يا آنسة!

نظرتُ خلفي، فوجدته (كريم)، ارتبكتُ قليلًا، ثم استجمعت ما تبقَّى مني. قال لي:

- أريدُ أن ألتقط صورة مع النيل، هلَّا ساعدتِيني؟

قالها بابتسامةٍ.

- بالتأكيد.

صوَّرتُه بهاتفه ثم أخذه منِّي وبدأ يتفحص الصورة وقال:

- أهِي جميلة؟

قالها مُتسائِلًا محتارًا. ثم أتبَع:

- ولكنها ستكون أجمل لو كنتِ معي فيها.

غضِبت وأدرتُ ظهري ورفعت رأسي للسماء، وكأنني كنت أبحث عن شيءٍ ما في الفراغ ليكبُتَ غضبي ويُعطيني إجابةً على ما يقوله لي، فأتبع قائلًا:

- لا تخافي، والله ما أريد منكِ إلا الخير، أُريدُكِ أن تُعطيني الفرصة فقط.

كان يتحدَّث وكنت أُدير ظهري له، أخاف أن ألتَفِتَ إليه فتتقاطع نظرتي بنظراته فتفضحني عيناي!

- عندما رأيتكِ لأول مرة، اختَطفتِني من نفسي بجمالكِ؛ فكانت بشرتك نقية ووجهك مصقولًا ومحددًا بدقة، لكن كانت ملامحك و تصرفاتك مُحبطة كأغصانٍ صفصافة، كنت أعتقد أنك في أوائل العشرينيات، لكن كان هناك صوت بداخلي يقول: لا، إنها تتمتع بشبابٍ أبديٍّ لا مثيل له.

نزِلت تلك الكلمات على مَسامعي، كانت أول كلمات غزلٍ أسمعها في حياتي. فالتفتُّ إليه في هدوء وكانت شفتاي

مواربتين على ابتسامةٍ تنُمُّ عن خجلي، وقد تغيَّر لون وجهي كعادتِه للأحمر، ثم أَتبعَ:

- سألتُ عنكِ وعرفتُ أنك سورية وتعيشين مع الكاتب (رامي المصري)، وعندما قابلتُكِ في السوق كنت لا أُعير اهتمامًا للفتاتين اللتين كانتا معكِ، كنت لا أوجِّه الكلام سوى لعينيكِ اللتين كانتا أكثر عينين حزنًا رأيتهما في حياتي، ولكني تعجبت من هذا! فكيف يكون اسمك (نُوچين) ويتملَّكُكِ كل هذا البؤس والحزن؟

قضبتُ حاجبي في تعجب، وأتبعَ مُبتسمًا:

- أليسَ اسمك يعني الحياة الجديدة؟ مما يعني أن هناك أملًا!

- قد بحثتَ عن اسمي أيضًا! -قُلتُها رافعةً حاجبي في تعجبٍ.

- اسمك، ومَاذا تحبِّين وماذا تكرهين، وكل شيء، كل شيء.

- وماذا أُسمِّي هذا، هل هو تجسس؟ -قلتُها مُتحيِّرةً، ثم هززتُ رأسي.

- لا، إنه حبٌّ.

قالها بصوتٍ مؤثِّرٍ واهنٍ مثل البلور، بدأت شفتاي ترتجفان ووقفتُ أنظر حولي محاولة ان لا تتلاقى عيني بعينه فالإنسان مهما حاول ان يخفي الحقيقة تبقى عيناه

كفيلتين بفضحه، تبقى كتابا مفتوحا لمن يحسن القراءة وقد كان بارعا في ذلك، فتنهدتُ، ثم أَتبَع:

- أنا أحبكِ وأريدُ أن أتزوجكِ، فهل تقبلين؟

تنهدتُ ووقفتُ مُتسمِّرةً، أحسستُ بضيقِ المكان رُغم اتساعه، أصبح جسدي باردًا كقطعة جليدية قادمة من القطب الشمالي، أحسست بلهيبٍ في قلبي كافٍ لإشعال مدينة كاملة، لم أكُن أسمع سوى صوت صفيرٍ تملَّك أذني وأَوْقف الكلام عن مسامعي بعد هذه الكلمة؛ فأنا لم أحظَ بتلك الكلمة من قبل سوى من عائلتي، تنهدتُ أكثر فأكثر، أحسستُ بأن نَفَسي يذهب مني، وكيف لا؟ وقد سلب (كريم) مني القلب والأنفاس! شعرتُ أنني سأقعُ مغشيةً عليَّ، فأمسكَ بيدي وذهب بي لأقرب كرسيٍّ وأجلَسَني وأخرج من حقيبةِ الظهر التي كان يرتديها زجاجةَ مياه فأعطاني إيَّاها كي أرتشفَ ما يروي حلقي الذي قد جفَّ. شرِبتُ ثم نظرتُ إلى الأرض نحو قدمي فتذكرتُ جملةً قد قالتها لي أمي من قبل: لا تثقي بأحدٍ، خصوصًا من يعجبونكِ، لأنهم سيكونون أول من يطعنوكِ في ظهركِ، سحقًا للأحزان التي جعلت مني شخصًا يشك حتى في اللحظات السعيدة. فهل حقًّا سيفعل؟ لا أستطيع أن أُجزِم بهذا، ولِمَ لا؟ لِمَ لا أجرب؟ فأنا أعجبتُ به أيضًا، لم لا أُزيلُ ذلك الحزن والبؤس المكتوم بداخلي

الذي تشكَّل خلال تلك السنوات؟ كان قرارًا صعبًا في وقت ضيِّق، كنت أخاف أن يسحبني ذلك الحب نحو عالمٍ خياليٍّ مبني على ركام أوهام مُستهلكة، كنت أخاف أن أشعر كمَن يهرب في رحاب روايةٍ؛ لأن موضوع الحب فيها ما هو إلا ظلال تعيشُ في روح شخص مجهول، ولكن كنت أعلم أنه بإمكان النساء أن يُدرِكنَ على الفور إذا ما كان أحد الذكور متيَّمًا بهِنَّ أم لا! ولِحسن حظي كنتُ أحظى بذلك الحدس، بعد ذلك حاولتُ التحدث ولكني تلعثمتُ حينما لمحت (مريم) وهي تأتي مُهرولةً نحونا، حاولت الاطمئنان عليَّ، ثم نظرت له ووبَّخته ببعض الكلمات، كان هناك صوتٌ بداخلي يقول لها: لا تحاولي إخافته حتى لا يبتعد عني، فأنا على مشارفِ التعلُّق به. أدارَ ظهره لنا ثم ذهب مُطأطِأ الرأس، تَمتمَ ببعضِ الكلمات بصوتٍ منخفض ونبرةٍ حزينة، واتَّجه بعيدًا عنا وهو يسحبُ قدميه، ثم نظر إليَّ في حزن شديد، فتساءلتُ كيف يُعقَل أن نشعر بوجود مسافة تفصلُنا عن بعض الأشخاص ونكون قادرين على تفسير نظراتهم في الوقت نفسه؟

في المساءِ كنا نجلسُ أنا و)مريم) و)سارة) أمام التِلفاز في الصالة، كنَّا نُتابعُ إحدى المسلسلات، لكنني كنتُ شاردةً في أمر ذلك الشاب الذي أسرني، وقد تعلَّقت به حقًّا، كم

كانت (مريم) قاسيةً عليه اليوم! لم تترك له فرصة للحديثِ، وأنا لم أستطِع التحدُّث بسبب الحالة التي كنت عليها، ظللتُ في تلك الحالة حتى وصلنا إلى البيت، وتركتني (مريم) كي آخذُ قسطًا من الراحة بعد يوم شاق مليءٍ بالأحداث والمشاعر حتى انتهي بالجلوس أمام التلفاز. بعد لحظاتٍ أتى الأستاذ (رامي) للبيت، وبعد إلقاء التحية علينا طلب مني أن أذهب إلى مكتبه لأنه يريد التحدث إليَّ، فذهبتُ إليه على الفور، ونظرتُ إلى (مريم) في تعجبٍ وكذا أختها ومدام (هالة). دلفتُ إلى المكتب فوجدته يجلسُ على مكتب خشبيٍّ بُنِّي لامعٍ ذي حوافٍ قد أُزِيلت القشرة التي عليها مع مرور الزمان، العديد من الأقلام على ذلك المكتب لا أعلم فيما يستخدم كل هذه الأقلام في الحقيقة! كان المكتب مُمتلئًا بالعديدِ من الملفات الورقية، كانت تلك الملفات في مُنتصف المكتب، بالكاد أرى وجهه الذي اختفى خلف تلك الملفات، أشار إليَّ بالجلوس، ثم قام بإبعادِ تلك الملفات بيده، ومن خلفِه كانت هناك مكتبة مليئة بالرفوف التي بها العديد من الكتب والمخطوطات والأبحاث ورسائل

الدكتوراه والمجلدات القديمة، أكاد أَجزِم بأنها كنزٌ معرفي كبير. نظر إليَّ وبدأ يُحدِّثني وهو يداعب الخاتم الذي بيده بأنامِله:

- كيف كان يومك اليوم يا (نُوچين)؟

قَوَّس حاجبيه.

- كان يومًا جميلًا.

أجبتُ بصوتٍ منخفض.

- لا أتحدَّث عن الرحلة، بل أتحدث عن القميص.

قالها وهو يرسم على شفتيه ابتسامة ماكرة.

- ق.. ق.. قميص ماذا؟

أجبتُه متسائلةً في تلعثُمٍ.

- لقد تحدَّث معي (كريم) منذ أيام ولكن لم أستطِع أن أعطيه ردًّا قبل أن اقوم بفتح ذلك الأمر معكِ، فأنت صاحبة القرار، وقرار مثل هذا سيكون فاصلًا في حياتك، ويذبغي أن تكوني مُهيئة لذلك، ولكن لقائكم اليوم وما حدث لك في (أبو سمبل) جَعلني أقوم بالتحدث معكِ، فأعتقد أن الرهبة قد أُزِيلت عنك.

قالها وهو يبتسم مطأطأ رأسه.

نظرتُ لأسفلٍ، وظللتُ ساكنة مكاني لا أتحرك، كان وجهي عابسًا، بذلتُ جُهدًا كي أبتسم له، فقد حجب الحزن شفتي ونظراتي المتعبة، لاحظ حزني فنهض من على الكرسي وتحرَّك صوبي ثم دنا مني وجلس على الكرسي الذي كان يقبع أمامي، مدَّ يده ورفع رأسي بِراحَةِ يديه ثم قال:

- ماذا بكِ؟ إنه يوم تنتظره كل فتاة، كنت أعتقد بأنكِ تُبادلينه الحب؛ فتُوافقين وتَرقصين فَرِحَةً.

- لقد تذكرت أبي. -قُلتُها والدمعُ تنهمرُ من عيني كما السيل.

- نعم، أنا معكِ، يجب أن نتذكر مَن فارقونا وذهبوا إلى الله، لكنه سيكونُ سعيدًا عندما يراكِ سعيدة. -قالها بنبرةٍ هادئة حَنون.

- صَدِقت، ولكنني تذكرتُ أحداثًا وكلامًا كان يقوله لي عن هذا اليوم ومدى شوقه لذلك الموعد، فهناك ذكريات لا تُمحَى مع مرور الزمن، وأحداث صعبة مرَّت عليَّ أَحدَثَت في ذاكرتي جرحًا لا يندملُ مع مرور الزمن.

- هوني عليكِ، نحن معكِ، ولن نتركِكِ حتى تتركينا أنتِ وتذهبين معه.

قالها مُشيرًا بسِبابته في وجهي ثم أتبع:

- ما ردُّكِ عليَّ؟ هذا الشاب مُمل جدًّا، لا يَمَلُّ من الاتصال بي، مثل الجراد الذي يأتي لي في كل مكان؛ في الحي، في العمل، عند الكنيسة، حتى الأمسيات الثقافية أجده أول الحضور! أبتسمُ له ابتسامةً فاترةً وأنا على يقينٍ أنه يحضر ليَراكِ، ومن الممكن أن يكون آخر كتاب قد أمسك به كان في الجامعة!

ضحكتُ ضحكةً أحدثت صدى في المنزل اقتحم المكتب على إثرها كل من كان في الصالة، دَخَلْن ثلاثتهن ومعهن (لي لي)، نظرت إليَّ (مريم) وقالت:

- ماذا؟ هل سنُباركُ الآن؟

- نعم، ولكن بشرطِ أن تتزوجَا قبل أن تنتهي من دراستكِ الجامعية.

- والإقامة؟

- سوف نقوم بعمل إكليل في الكنيسة ومن ثم نبدأ الإجراءات على أساس أن الزوج مصريٌّ الجنسية.

- يا أبي، إنها مسلمة.

قالتها (سارة) ضاحكةً.

- أقصد عقد القرانِ، ولكن لن يتم عمل الزفاف قبل نهاية دراستك يا (نُوچين)، اتفقنا؟

أومأتُ برأسي موافقةً في خجلٍ وأنا أنظر إلى الأرض مُمسكة بأنامل أصابعي، دَنَت مني مدام (هالة) وأمسَكَت ذراعي بيديها، وحَنَت رأسَها وقبَّلت وجنتي، مسحت بيدها على ظهري، وأَوقَفَتني من على الكرسي ثم احتَضَنتني، وهي تتمتِمُ بصوتٍ مبحوحٍ هادئ حَنون: ألف مبروك يا صغيرتي. خَالَجتني مشاعرٍ وأحاديث عديدة، كنت أريد أن أرقصَ، أن أطوف، أن أُمسِك بأيدي (مريم) و)سـ ارة) وأ ضحك، لكـ ن لم أ نبَس بشفا كلـ مةٍ؛ فلقد اعتدتُ الوحدة منذ سنين. قطع الألم لساني وملأ قلبي بالضجيج. لعلَّ (كريم) يستطيع ترميم الخراب الذي بداخلي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الفصل الثاني عشر
نَجَاحٌ

(اخترت في النهاية من تحمل مناخي السيّئ وطقسي المزعج)

١٠ يناير ٢٠٢٠. أسوان، ليلًا.

كنت أجلسُ على كورنيش النيل بأسوان، في جوٍّ شتويٍّ ساحر؛ فأسوان في الشتاءِ لها سحرٌ لا يُقاوَم، هنا أطفالٌ يلعبون بالدراجات يُضفُون جوًّا من البهجة والسعادة، هنا أتنسَّمُ بضع من نسماتِ الحياة، المارة يمشون في سعادةٍ ويضحكون، وأجلسُ أنا بصُحبةِ زوجي (كريم) ومعنا طفلنا (عمار)، هذا ما قد يُهوِّنُ عليَّ ما مررتُ به من صعوبات؛ زوجٌ يحبني وطفلٌ يملأ عليَّ كل ثغرات الحياة وآلامِها. أتذكرُ حينما تقدَّم (كريم) للزواج مني، لم أطلب منه الكثير؛ طلبتُ فقط روحًا ها دئة وقلبًا غير محطم، ووطنًا يُعانِق غُربتي؛ فكان لي وطنًا، وكان حِضنه أكثر الأماكن اتساعًا، كنت أريد أن يتوقف كل هذا القلق وأن يعود قلبي هادئًا كما كان في الماضي، كان الاختيار بالنسبة لي صعبًا جدًا بسبب ما مررت به، ولكني اخترت في النهاية من تحمل مناخي السيئ وطقسي المزعج، اخترت من تفهم أن عصبيتي الزائدة ليست بطبع، وأن

حزني ليس بنكد، وأن عتابي ليس افتعالًا للمشاكل، في كل مأزق كنا نمر به كنت أميل عليه ويميل عليّ، كنا نقاوم معًا، كان يحاول ترميم الخراب الذي بداخلي.

خلال تلك الفترة الماضية؛ أنهيتُ دراستي الجامعية ثم تزوجت بـ (كريم) وأنجَبنا (عمار)، وفي تلك الفترة حاولت أن أبحَث جاهدةً مِرارًا وتكرارًا عن أمي وعن (عمار) أخي؛ لكن دون جدوى! وكأنهم تبخَّروا في الهواء. أَثَّرَ هذا الأمر وكل تلك الاحداث عليَّ كثيرًا، جَعلتني عاجزةً عن التعبير عمَّا بداخلي، كنت كتلةً من الأحزان تمشي على الأرض، قد أصبح الحزن مهمًا جدًّا في حياتي، كان جزءًا لا يتجَزأُ منها، أتذكره وأعيشُ كل لحظة منه، وكأنها لحظةٌ جديدة؛ لذا عزمتُ على أن أستَثمِر ذلك الحزن الذي يَملَؤُني ويُعيقُني، قررت أن يكون سببًا في تغيير حياتي كما أشار عليَّ (كريم)، لديَّ كل المُقومات لاستثماره؛ حيث أصبح لي حبيبٌ وعائلة ومناخ جيِّد بعيد عن الحرب والدمار. أتذكرُ حينما قال لي (كريم):

- لِمَ كلُّ هذا الحزن يا (نُوچين)؟

- ولِمَ لا أحزن! ؟ فأبي تُوفِّيَ وأختي القعيدة التي كانت أطيب إنسانٍ من الممكن أن تتعامل معه في حياتك قد توفِّيت وقُتِلت أمامي بدمٍ بارد طفلةٌ وأناملها تداعب دميتها الصغيرة بعد أن تركتُها وهي تلِحُّ عليَّ باللعبِ معها،

أمي وأخي اِختَفَيا، كل هذا الألم والحزن في يومٍ واحد! حتى المساء في ذلك اليوم قد هبط عليَّ غدرًا! واتَّشحَ الحي بالسواد، تلك الليلة مَليئةٌ بالخيبات، حتي تِلك النجمة التي كانت تُضيءُ لِي دُروبي في الليالي المظلمة لم تكن موجودة! يوم زفافي كنت كالحمامةِ البيضاء الضائعة رُغم وجودك بجانبي ووجود عائلة الأستاذ (رامي) ووجود قرط أمي الذهبي الذي ارتديته لأول مرة منذ اختفائها. في هذا اليوم؛ كنتُ أحتاجُ إلى حضن أمي، حبٌّ حقيقي يُسلِّمُني إلى حبِّ حياتي.

بكيتُ حتى امتزج الكُحلُ بالدموع مُحدثين خطوطًا سوداء على خدي.

احتَضنِّي (كريم) وقام بمسحِ يده على ظهري في حركةٍ دائرية كي يُهوِّن علي مرارةِ ذلك الحديث، وقال:

- أعلمُ أن كل ما مَررتِ به صعبٌ حقًّا، لكن لِمَ لا تجعلين حُزنك هذا هو نقطة قوة وليس نقطة ضعف؟ لِمَ لا تصنعين من الحزن نجاحًا؟ إن مشاعر الحزن مُهمة جدًّا في حياتنا، عيشي كلَّ لحظة منها، انزعجي بقدر مشيئتك إلى أن ترغبي في تغيير حياتك التي تعيشينها الآن، يجب أن تستمري في الحركة، تحركي نحو قدرك؛ لأنه في انتظارك، يجب أن تتحركي وتحصلي عليه، وقدرك ليس

أن تكوني فتاةً عادية مثل كل الفتيات، لأن ما مررتِ به ليس بالشيء العادي!

وبالفعل؛ قررت أن أُحوِّلَ حزني هذا إلى نجاحٍ، فبدأت في كتابة رواية أَثبَتُّ فيها كل هذه الأحداث؛ لعلها تكون ضمن صفحات التاريخ، كان يساعدني فيها الأستاذ (رامي المصري)، كانت تجربةً فريدة بالنسبةِ لي، فلقد كُنتُ قارئةً جيِّدة، كنت أتحسس الكلمات التي أقرأُها بعناية، أشعر بها، أغوص في معانيها، أسألُ نفسي: ما الذي كان يمر به هذا الكاتب كي يقوم بكتابةِ كلمة تصف الشعور الحالي لمن يقرأُها رغم أنها قد تكون قد كُتبَت من سنين؟! استطعتُ الإجابة على هذا السؤال عندما أنهيتُ روايتي وبدأتُ أقرأُها بعين القارئِ وليس الكاتب، أدركتُ أن للكلمات معانٍ مجهولة تصلُحُ لجميع الأزمنة! وبعدما انتهيتُ منها وقَرأها الأستاذ (رامي) وقام بالتعقيب على بعضِ ما جاء فيها؛ أشار عليَّ بأَن أتقدَّم بها في أحد أرفعِ المسابقات العربية للرواية، وبالفعل قد فعلتُ. وفي إحدى الليالي التي كنت أجلس فيها مع (كريم) ومعنا طفلنا (عمار) على نيل أسوان؛ رنَّ هاتفي برقم دوليٍّ، فأجبتُ على الاتصال، وإذا بشخصٍ ذي لهجة خليجية يُخبرني فيها بفوز روايتي بجائزة هذا العام! وكانت أولى رواياتي! لم أنبَس بشفا كلمة! حاولت أن اتحدث ولكن

كان لساني بالكاد ينطِقُ! والدموع تزرف مني، ولكن هذه المرة دموع فرحٍ.

فأخذَ (كريم) الهاتف منِّي وأكملَ معهم باقي المكالمة، احتضنِّي وهرولنا في الشوارع مُمسكين بعربةِ (عمار) كالمجانيين نضحك ثم نضحك. كان الجميع ينظر إلينا وكأن لسان حالهم يقول: ما هذا الجنان؟ ذهبنا إلى منزل الأستاذ (رامي) لنزفَّ له هذه البُشرى، أَمسكَ (كريم) بـ (عمار) وبدأنا الصعود على السلم وأنا أُنادي: يا أستاذ (رامي)، يا (مريم)، يا مدام (هالة)، يا (سارة)! كنتُ أُردِدُ أسماءَ هُم في كل درجةٍ أصعدُها من السُّلم، كنت أصعد وكأنني أصعد سلم النجاح، كدت أن أسقُطَ أكثر من مرةٍ ولكن كان (كريم) يُمسِك بي، حتى وصلت فاحتَضَنوني جميعًا، وبدأتُ أحكي لهم كل ما حدث كالمجنونة المُتلهفة المتشوقة الفرحة، وما إن انتهيتُ حتى نَزِلت دمعةً من أعين الأستاذ وشفتاه ترتجفان فمَسحها بيديه في ارتباكٍ، وبدأنا في الاحتفال بهذا الحدث العظيم.

وبعد أسبوع؛ سافرتُ كي أستلمَ الجائزة، وانهالت عليَّ العروض لعقدِ اللقاءات التليفزيونية والصحفية والإذاعية من داخل وخارج مصر لسردِّ تجربتي، حتى أطلَقَت عليَّ بعض الصحف (أيقونة المرأة السوريَّة). أصبحت صوري وروايتي تتصدر مُحركات البحث ومواقع التواصل

الاجتماعي، لم أكن أحلم بذرَّةٍ مما يحدث ولم أكُن أتخيله. وفي أحد الأيام؛ كنت أُعِدُّ مأدبةَ غداءٍ للاحتفال بذلك النجاح بصُحبة عائلة الأستاذ (رامي)، أعددتُ أنا و(كريم) ما طاب ولذَّ من الطعام وجلسنا مستعدين لاستقبالهم، سمعتُ طَرقاتٍ مكتومة على الباب كان مميزًا بها الأستاذ (رامي)، فذهبتُ مسرعة نحو الباب وفتحته، فوجدتُ أمامي سيدة مُنتَقبة، وقفْتُ مُتسمِّرة مُتسائلة في حيرة: يا تُرى هل هي أم لا؟ فعِطرها الطيب لم يفارقني منذ أن اختفت، دَنَت مني السيدة وهي تشهقُ، وبدأت تُتمتِمُ: (نُوچين) بصوتٍ ضعيف واهنٍ يكاد يخرج، ثم رفعت النقاب الذي كان قد تبللَ إثر الدموع التي انهمَرَت على خديها، كانت أمي! أنهار من الدموع الصامتة على خدي، ظللت ابكي، ليس لأنني ضعيفة بل لأنني كنت قوية، قوية لوقتٍ طويل جدًّا، يا أللّه! بعد كل هذه السنوات من البؤس والحزن والألم! بعد أن فقدتُ الكثير من الأشياء والأشخاص، العديد من المشاعر والمواقف والمناسبات!

بعد أن فقدت البسمةَ التي كانت تُرسَم على شفتيكِ عند قدومي بعد نهاية يوم دراسيٍّ شاق! كم تمنيتُ أن يعود بي الزمانُ عندما كنت طفلة لأرتميَ في حضنكِ ويتوقف عند هذه اللحظة كل ألمٍ في قلبي ناره كانت تخمد إلا نار

الحنين إليكِ؛ فلم تخمد أبدًا. فتحت ذراعيها فارتميتُ في حضنها، قبَّلتها في كل جزءٍ من جسدها حتى دَنوتُ من قدميها فقبَّلتها وهي تحاول أن تُقِفني، دَنَت مني حتى افترشنا على الأرض، دفنتُ رأسي في صدرها، أحسستُ بدفءٍ كنت قد نسيته، ذلك الدفء الكفيل أن يشفي أوجاعنا وآلامنا، اعتقدتُ بأن الحياة غير عادلة، جعلت قلبي مدينة للألم تعيش على أطلال ذكريات جميلة مؤلمة يحكُمها حنينٌ فانٍ؛ حتى جاءت أمي فأعادت إعمار تلك المدينة.

بعد فترة؛ قررتُ العودة إلى الحيِّ الذي كنتُ أقطُنه بصحبةِ أمي و)كريم) وطفلِنا (عمار)، بعد أن علمتُ عن طريق مواقع التواصل الاجتماعي أن أخي قد استُشهِد أثناء إحدى الغارات على حيِّنا وأنه لم ينضم إلى إحدى الجماعاتِ المُسلَّحة كما قال لي جارنا مِن قبل لإقناعِي بالمغادرة معهم، كل هذا لم يكُن ليحدُث لولا وجود مواقع التواصل الاجتماعي! هي من جَمعَتني بأمي وجَعلَتني أعرفُ مصير أخي بعدما طلبتُ ذلك على صفحتي الشخصية بأحد مواقع التواصل الاجتماعي، هي من جَعلتني مشهورةً لدى عُموم الشعبين؛ المصري والسوري وأيضًا العربي، ولدى أهلي في الحي حين دخلتُ عليهم مُحمَّلةً ببعضِ الهدايا لهم وليس معونات! فهُم

أهلي ولا ينبغي أن تُكتَب لهم تلك الكلمة! خِفتُ عليهم من التغيُّر؛ فالناس يتغيرون لسببين؛ إما أن تكون عقولهم قد نضجت أو تكون قلوبهم قد تحطَّمت! ولكن ظلَّت روحهم كما تركتُها، استقبلُوني استقبالَ الفاتحين؛ وكأنهم انتصروا وحققوا مطالبهم، تنَاسَوْا آلامهم وأحزانهم وحاجتهم للماء والغذاء والطاقة، واجتمعوا على حبِّهم لي! اجتمعوا على حاجتِهم للفرحة، هذا رجلٌ مُسِّنٌ يضحك مُلوحًا لي على الرغم من مُكوثه على أنقاضِ م نزله ، هذه ا لسيدة تحملُ بين ذر اعيها طفلةً وجهها مُتَّسخٌ تقضمُ كِسرةَ خبزٍ قد تحجَّرت ولعلها آخر غذاء لهم!

وهذا شابٌّ يأتي إليَّ مُهَروِلًا على عُكازين، مبتور القدمين بسبب إحدى الغارات الغاشِمة! هدأت الاحتفالات بي وذهبنا نحو أطلال بيتنا، ثم وقفت أُطالعُ الحي وأنظر إلى كلِّ ركنٍ وزاوية فيه، كان الحي كما تركتُه، خفتَت الهتافات منذ زمن بعيد بسبب زئير حربٍ صَمَّت الآذان، وعلى الرغم من عودة بعض النازحين إليه، وإحياء ما تبقَّى من مناطقهم بعد أن نَفَضُوا غبار الحرب عنهم؛ فإن مَشاهد الدمار كفيلةٌ بأن تبقَى شاهدةً على ما اقترفَته الآلة العسكرية من تدميرٍ مُمَنهَج وقتلٍ وتهجير لأبناء الشعب السوري؛ حيث إن كثيرًا من الأبنية السكنية لا تصلُحُ

للسكن بعد تصدُّعِها على خلفية العمليات العسكرية من قصفٍ جويٍّ وبريٍّ، لكن قسمًا كبيرًا من الأهالي أُجبِرُوا على السكن ضِمنها بعد أن ضاقت بِهم سُبل العيش وسَئِموا النزوح والترحال، وهو ما كان له عظيم الأثر؛ فقد وثقت وفاة وإصابة العشرات من أبناءِ درعا، نتيجة انهيار تلك الأبنية المتصدعة، أتذكرُ عندما كنت هنا من قبل، كنت أحمل حياتي على يدي، أهرع في الشوارعِ المدمَّرة من مكانٍ إلى مكان هاربةً من الموت وأمام أعيني تتناثر الدماء وبعد كل ذلك لم أَمُت! بل عِشْتُ حياةً في مدينة غير قابلة للحياة، عِشتُ الموت في كل لحظة، ولو لا تمسُّكي بالحياة لِما استكملتُ رحلتي في البحث عن نفسي، عن الحياة، كانت العودة حلمًا بالنسبة لي وكان من المُحزِن أن يكون لديك حلمٌ وأنت تعلم أنه لن يتحقق، تذكرتُ حينها أنني قد كتبتُ على آخر جدار تبقَّى من بيتنا قبل خروجي من الحي:

(كنتُ هنا ولسوف أعود. (نُوچين)). وها أنا قد عدتُّ.

هنا توقَّفَت حروفي وجفَّ قلمي وخُتِم آخر فصلٍ في رِوايتي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

فريق
متميزون
E-BOOK

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـاة

الفهرس..

عن الرواية..
الفصل الأول_اِخْتِفَاءٌ
الفصل الثاني_رَحِيلٌ
الفصل الثالث_العَوْدَةُ
الفصل الرابع_جَحِيمٌ
الفصل الخامس_نِزُوحٌ
الفصل السادس_رِحلَةُ المَوتِ
الفصل السابع الفَرِيسَة
الفصل الثامن_حَيَاةٌ جَدِيدَةٌ
الفصل التاسع_مَتَاعِب
الفصل العاشر_صُدْفَةٌ
الفصل الحادي عشر_حُبٌّ
الفصل الثاني عشر_نَجَاحٌ
الفهرس..

جدول المحتويات

عن الرواية..	4
الفصل الأول اِخْتِفَاءٌ	9
الفصل الثاني رَحِيلٌ	23
الفصل الثالث العَوْدَةُ	33
الفصل الرابع جَحِيمٌ	42
الفصل الخامس نِزُوحٌ	52
الفصل السادس رِحلَةُ المَوتِ	67
الفصل السابع الفَرِيسَة	79
الفصل الثامن حَيَاةٌ جَدِيدَةٌ	89
الفصل التاسع مَتَاعِب	100
الفصل العاشر صُدْفَةٌ	109
الفصل الحادي عشر حُبٌّ	121
الفصل الثاني عشر نَجَاحٌ	132
الفهرس..	144